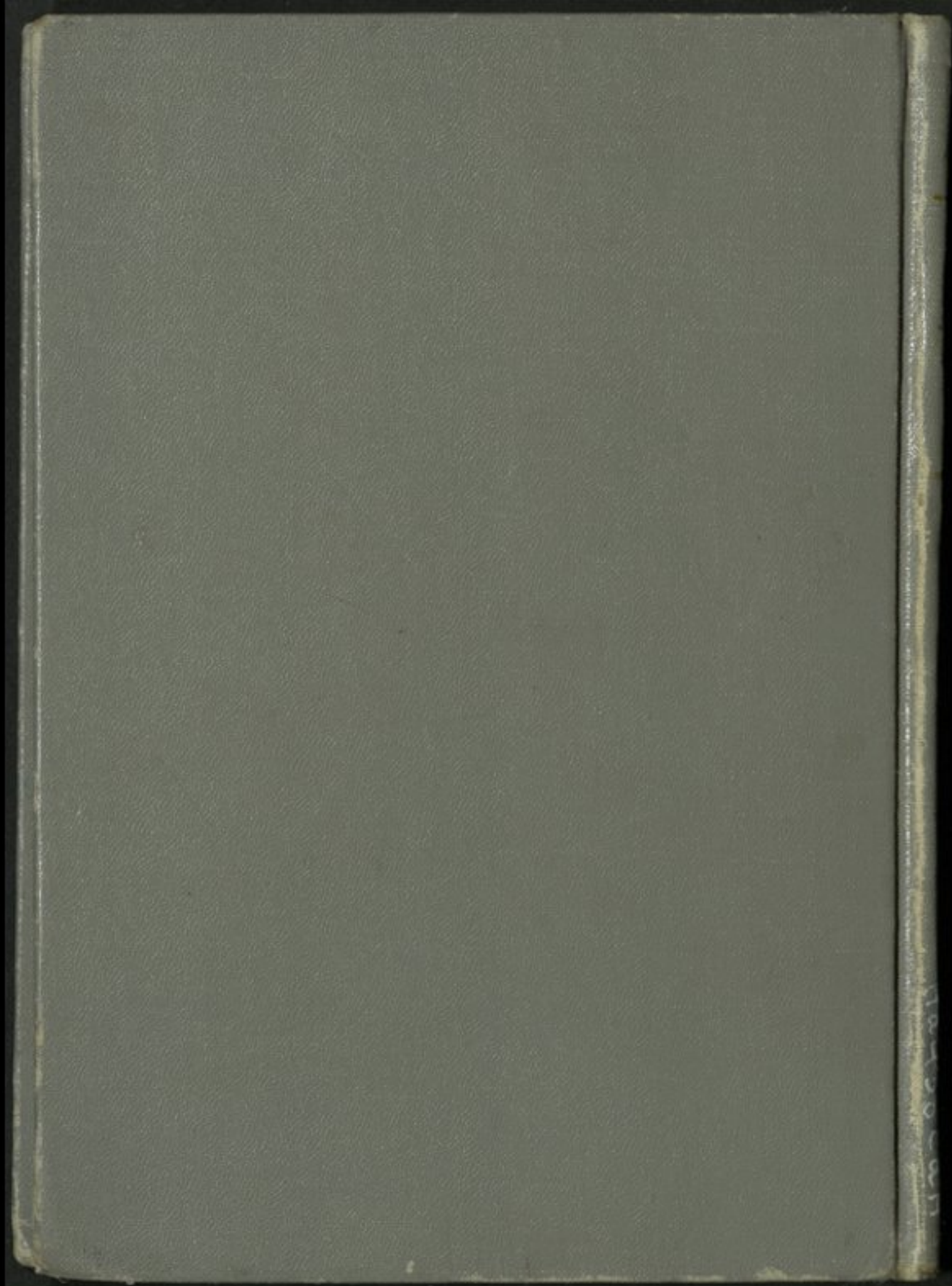


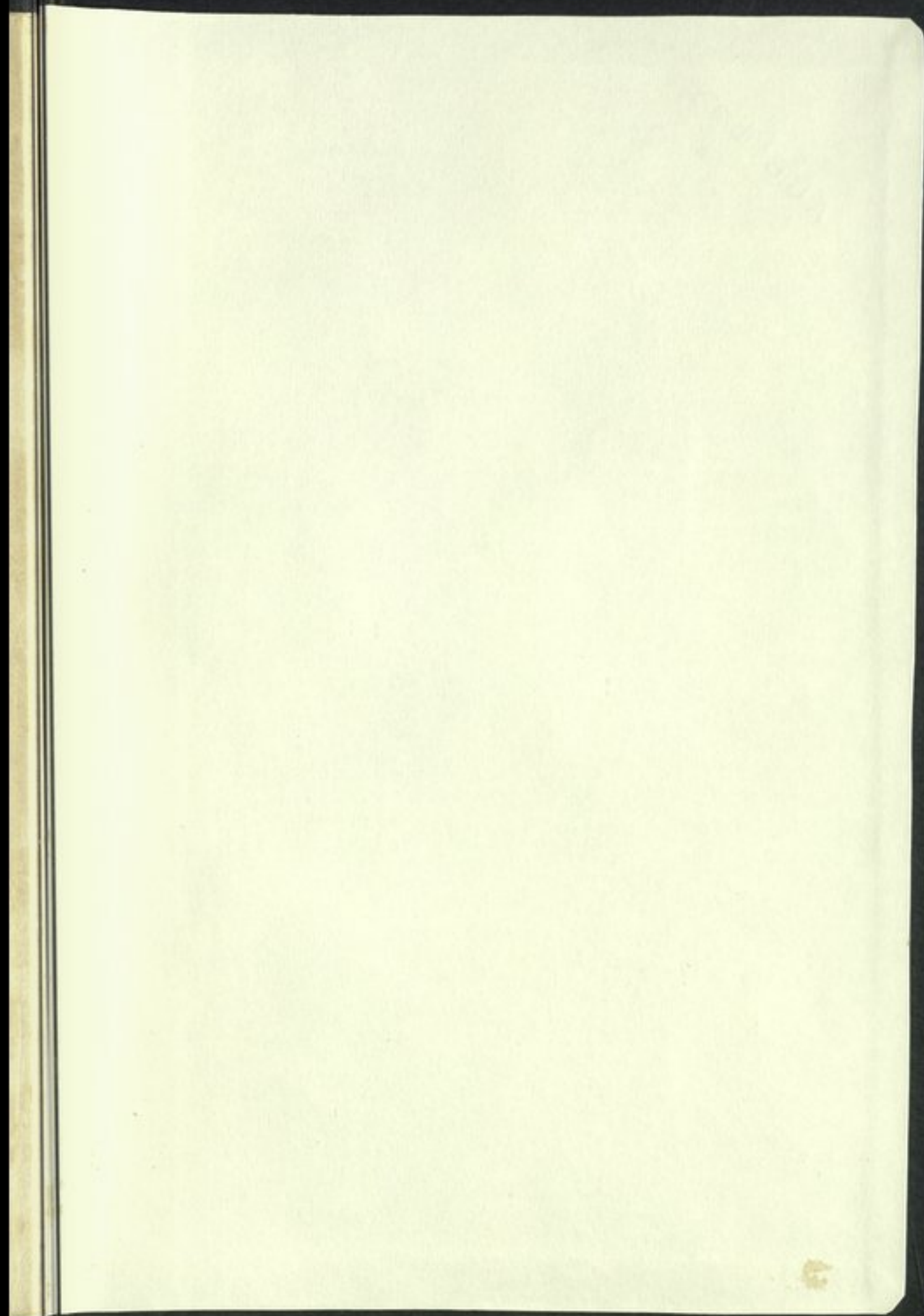


A.U.B Library

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B Library



توفيق الحكيم

892-78
Ha 4386aA
C.1

التعاضلية

مذهبى فى الحياة والفن

١٩٥٥

الناشر : مكتبة الآداب بالجواميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشاوىرى بالقاهرة الجديدة

1873

VI

LIBRARY

21 SEP

1873

1873

1873

1873

1873

كتب للمؤلف

نشرت في اللغة العربية

محمد
 { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
 { الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد
 { الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)
 { الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
 { الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)

أهل الكهف
 { الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
 { الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)
 { الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
 { الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
 { الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)
 { الطبعة السادسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)

عودة الروح
 في جزئين
 { الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
 { الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)
 { الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)

تحت شمس الفكر
 { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
 { الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
 { الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)
 { الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
عام ١٩٣٨) } تاريخ حياة معدة
الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
عام ١٩٣٨) } عهد الشيطان
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

(مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) } براكا أو مشكلة الحكم

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) } راقصة المعبد
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)

(مطبعة مصر عام ١٩٤٠) } نشيد الإنشاد

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) } حمار الحكيم ✓
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) } سلطان الظلام
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩١٢)

(مطبعة التوكل عام ١٩٤١) } من البرج العاجي ✓

(مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) } تحت المصباح الأخضر ✓

(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤) } أهل الفن ✓

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) } بجماليون
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المتحيرة ، نهر الجنون ، رصاصة في القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)	مسر حيات
بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)	القصر المسحور
المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو الملهم . أمام شبك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)	مسر حيات
الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)	
الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)	يوميات نائب في الأرياف
الطبعة الثالثة : (مطبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩)	
الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣)	
الطبعة الخامسة : (مدرسية) (النموذجية ١٩٥٤)	
الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)	عصفور من الشرق
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)	
الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)	
الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)	
الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)	سليمان الحكيم
الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)	
الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)	زهرة العمر
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)	

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

(مطبعة النوكل عام ١٩٤٥) .	{	رخصة في القلب
(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)	{	الرباط المقدس
(مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)	{	حمارى قال لى
(مطبعة النوكل عام ١٩٤٥)	{	شجرة الحكم
(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)	{	الملك أوديب
المجموعة الأولى والثانية (مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)	{	قصص توفيق الحكيم
(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)	{	مسرح المجتمع
(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)	{	فن الأدب
(مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)	{	ذكريات الفن والفضاء
(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)	{	ارني الله
(مطبعة دار الهلال عام ١٩٥٣)	{	عصا الحكيم
(مطبعة رو اليوسف عام ١٩٥٤)	{	دقت الساعة
(مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)	{	تأملات في السياسة ✓
(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)	{	التعاضدية ✓

كتب للمؤلف

نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر نوفيل
ايديسيون لاتين وترجم الى الانجليزية ونشرت
مختارات منه في دار النشر (ييلوت) بلندن ثم في دار
النشر (كراون) بنيويورك . في عام ١٩٤٥

شهر زاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل
للنشر . وبالانجليزية ونشرت مختارات منه في لندن
عام ١٩٤٢

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام
١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الانجليزية في (دار هارفل) للنشر
بلندن عام ١٩٤٧ وترجم الى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨

يوميات نائب
في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالسكوليج دي فرانس ثم ترجم
الى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

عصفور من الشرق

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

بجماليوت	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
سليمان الحكيم	:	» » » » » » » »
نهر الجنون	:	» » » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » » »
المخرج	:	» » » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » » »
« دار نشر نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »		
مشكلة الحكم	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣
السياسة والسلام	:	» » » » » » » »
الشیطان في خطر	:	» » » » » » » »
بين يوم وليلة	:	» » » » » » » »
العش الهادي	:	» » » » » » » »
أريد أن أقتل	:	» » » » » » » »

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	:	ترجم ونشر باللغة الفرنسية في باريس عام ١٩٥٣
دقت الساعة	:	» » » » » » » »
أنشودة الموت	:	» » » » » » » »
لو عرف الشباب	:	» » » » » » » »
السكر	:	» » » » » » » »

هذه الصفحات ليست سوى إجابة عن سؤال .
إجابة موجزة عن سؤال مهم ، وجهه إلى قارئ جاد
وقد جعلت إجابتي للنشر ، لأنها قد تلقى ضوءا على
كتبي التي نشرت .
ثم هي بعد ذلك تحمل تحديدا لوضع ، يمكن وصفه
بأنه مذهبي في الحياة والفن .

[Faint, illegible handwriting, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

تسألني ما هو مذهبي في الحياة والفن ؟ . وتقول إنك
قرأت كل كتيبي وخرجت منها بعقيدة : هي أنها في مجموعها
تحاول تفسير «الإنسان» في وضعه العام من الكون بزمانه
ومكانه ، وفي وضعه الخاص من المجتمع بأجياله وبيئاته ،
وأن هذا التفسير يدل على اتجاه ، يمكن وصفه بالمذهب ،
لو كان في المقدور استخلاص أسسه وقواعده ، وهو
ما تسألني أن أقوم به .

أعترف أني سررت لقولك هذا وعجبت ... سررت
لأنني أحب القاريء الذي يستكشفني . وعجبت لأنني لم أفكر
حتى اليوم فيما فكرت أنت فيه . ولعل السبب هو أني
كره الفن الذي يبني على مذهب ، ولا بأس عندي أن يبني
المذهب على الفن . لأن الفن هو الكاشف الحر عن أسرار
الكون . وهذه الحرية في الأحساس والشعور والبحث

والتفكير كانت هي وسيلتي الأولى . أما وقد كتبت ما كتبت
بهذه الحرية ، فإن المذهب الذي يمكن أن يستخلص من
هذه الكتابات لا يضيرني ولا يقيدني . ومادمت تدعوني أن
أبحث عن هذا المذهب أو هذا الاتجاه بين هذه الكتب فلن
أحجم . سأحدث إذن على أساس فكرتك .

أولا — وضع الإنسان في الكون .

ثانيا — وضع الإنسان في المجتمع .

ما هو الإنسان أولاً ؟ ... هذا سؤال قديم قدم
التفكير الآدمي ... جديد ما بقي التفكير الآدمي في هذا
الكون ... فالإنسان مضافاً إليه التفكير يولدان حتماً هذا
السؤال ... ومادام السؤال قد أُلقي فلا بد له من جواب ...
وهذا الجواب هو كل ما تحاول صياغته ، في أثواب متجددة
جدة الأيام والليالي ، كل علوم الأرض وفلسفاتهما وفنونها
وآدابها . وهذه المحاولات لا يدري أحد مصيرها . لأن
الجواب لا يمكن أن يكون قاطعاً مادام السؤال غامضاً .
والسؤال غامض لأنه وليد أبوين غامضين وهما : الإنسان
والتفكير . وإذا كانت القرون تولى والسؤال يلقى في كل
يوم : ما هو الإنسان ؟ ... ما هو التفكير ؟ ... فهل
نطمع في حل نهائي لهذه الأسرار ؟ .

ما أظن أحداً يأمل في حلول نهائية أو إجابات قاطعة ...

إنما المطلوب هو الاجتهاد في الملاحظة والتفسير . كل
من زاويته . وكل بوسيلته . وكل بأسلوبه .

هذا كل ما نستطيع . وهذا كل واجبنا . ولا ينبغي أن
نترك الوجود دون أن نلقى على أنفسنا السؤال : ما هو
الإنسان ؟ ... وأن نحاول إيجاد تفسير : ...

وهنا يدخل الفرض لمعاونتنا . . . يجب أن نفترض
حقائق نسلم بها حتى نستطيع السير في هذا الليل البهيم . . .
ولولا الفرض في الفلسفة والعلم لما كان هناك تقدم نحو أى
تفسير لأى ظاهرة من الظواهر .

فلأفترض مؤقتاً أن الإنسان لا يحتاج إلى تعريف : إنه
ذلك المخلوق المعروف لنا جميعاً الذى يعيش فوق هذه
الكرة الأرضية .

ولأفترض مؤقتاً أيضاً أن التفكير هو حركة الوعي
الذاتى فى اتجاه منتظم متسلسل أى منطقي .

هذا المخلوق المفكر الذى يسأل عن حقيقته .

ما صفاته ؟ .. أول صفة لا تقبل الشك هو أنه يعيش على
هذه الأرض ... إذن لا بد أن تكون بينه وبين الأرض
صلة ... أو مشاركة في صفة .

ولكن ما هي الأرض ؟ ...

خرجنا من سؤال عسير إلى سؤال أعسر ...

فلنتنع بأهم صفة للأرض ... وهي أنها كرة تعيش
بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم هي الشمس ...
فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت في
الفضاء ... التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة
الأرض .

فهل صفة التعادل هي أيضا الحقيقة الأولى في كيان
الإنسان ؟ .

فلنظر أولا كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن
مادى ؟ .. إنه يعيش طبعاً بالتنفس .

ما هو التنفس ؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير .

فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاعياً
على الزفير أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق
وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادى إلى التركيب
الروحى ، وجدنا عين القانون .

فالتركيب الروحى للإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره ،
فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور . أو بعبارة أخرى :
العقل والقلب .

والحياة الروحية السليمة هي أيضاً تعادل بين الفكر
والشعور .

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو
إلا اختلال فى هذا التعادل . أما بتضخم الشعور تضخمها
يلغى إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد الإنسان طفلاً
فى أعوامه الأولى . وإما أن يطغى الفكر ويكبث الشعور ،
فترتبك أداة الإدراك فى الإنسان . . .

فالإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً . وهو ليس

وحده الذى ينطبق عليه هذا التعريف . كل الكائنات التى تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هى أيضا كأمها فى تركيبها ، تعادلا هو سر حياتها .

فالحيوان والنبات . والجماد ... كلها تخضع لقانون
« التعادل » فى تركيبها البيولوجى والكيميائى والطبيعى . حتى
فى نظر العلم الحديث ، الذى غير معتقدات القرن التاسع
عشر حول « المادة » وبين بنظرياته عن « المادة » و « المجال »
إن ما نصفه بالمادة ليس سوى « الطاقة » مركزة تركيزا شديدا .
كما أنه صاغ أيضا القوانين الجديدة فى مجال الجاذبية بين
جزيئات المادة . و « الجاذبية » هى أساس التعادل . لأن الجاذبية
تعنى وجود قوتين . والتعادل يعنى المحافظة على بقاء
القوتين ، دون أن تتلاشى إحداهما فى الأخرى .

ولنترك الإنسان من ناحيته المادية لرجال العلم ، فإيهم
رجال الأدب والفن هى الناحية الروحية فى الإنسان . وإن
كانت الناحيتان متداخلتين أحيانا . بل إن من الصعب وخاصة

في نظر المعرفة الحديثة فصل ما هو مادي عما هو روهي .
بل أصعب من ذلك إيجاد تعريف دقيق لمعنى كلمة «روهي» .
ولكن المقصود بالطبع هو المعنى الشائع في الأدب والفن
لهذه الكلمة . المعنى الذي يراد به الإشارة إلى حياة الإنسان
الفكرية والشعورية .

فإذا أراد الأدب أو الفن تفسير الإنسان ، فأنما يعني
إلقاء الضوء على موقفه الفكري والشعوري تجاه هذا العالم
الذي وجد فيه . عالم الزمان والمكان والماضي والحاضر
والمستقبل والبيئة والمجتمع الخ . . .

ووسيلة الأديب أو الفنان في تفسير الإنسان مغايرة
لوسيلة العالم والفيلسوف . فهو لا يلجأ إلى منهج بحث
أو تحليل . ولكنه يلجأ إلى موهبة خلاق ومحاكاة . فهو ينشئ
صورة للإنسان . أو على الأصح صورة لتفكيره وشعوره
قد تحوى من السمات والصفات الظاهرة والخفية ما يعين
العلماء والفلاسفة على استنباط الحقائق والقوانين .

على أن موهبة الخلق والمحاكاة لا تكفى وحدها للقيام
بهذا التفسير والتصوير. إذا لم تستمد غذاءها من جوهر العلوم
والمعارف السائدة في عصر الأديب أو الفنان.

ففسكرة أبي العلاء أو شكسبير عن الإنسان هي في نفس
الوقت انعكاس لما كان سائداً في عصر كل منهما من ثقافة
ومعرفة. ولن يصل الأديب أو الفنان إلى تحديد موقف
الإنسان في زمانه وعالمه ومجتمعه وعصره، إذا انقطعت
صلة الأدب أو الفن بالعلوم والأفكار المحيطة به.

على أن مهمة الأديب أو الفنان ليست مجرد تصوير هذه
العلوم أو تجسيد هذه الأفكار. بل إن واجبه اعتبار هذه
العلوم والأفكار مادة غذائية تنفعه في بناء الإنسان من
جديد، بناء حراً ينبع وحيه من صميم موهبته الخاصة في
الخلق والملاحظة والمحاكاة...

وعندما أقول المحاكاة لا أقصد تقليد المظاهر السطحية
بل أقصد محاكاة الطبيعة في قوانينها الخفية، التي يستطيع الفنان

١ اقتناصها بشبكة احساساته الدقيقة

اتلك هي وسيلة الأدب والفن في تفسير الإنسان .

قد تسألني بعد ذلك :

ما تفسير الإنسان في نظر الأدب والفن في

عصرنا الحاضر ؟ ...

هذا سؤال يحتاج في الإجابة عنه إلى مجلدات ، تملأ

بالآراء والمذاهب والاتجاهات التي شغلت الأذهان في

هذا القرن الأخير .

وليس هنا موضع الحديث في ذلك . فالمطلوب مني في

إجابتي هذه إليك أن أعرض تفسيراً للإنسان مستخرجاً من

كتبي . أليس هذا غرضك ؟ ولن أرجع إلى كل الكتب .

ولن أسهب في التفصيلات . فما أنا بصدد بحث عام .

إنما أنا أبدى وجهة نظري الخاصة لتكون نقطة بداية لمن

يعنيه الأمر .

ما هو وضع الإنسان العام في هذا الكون كما تصوره ؟ .

هذا السؤال يستوجب التقسيم إلى مسألتين تعرضان دائماً في كل عصر :

المسألة الأولى — هل الإنسان وحده في هذا الكون ؟

المسألة الثانية — هل الإنسان حر في هذا الكون ؟

الجواب عن هاتين المسألتين يترتب عليه تحديد

تبعات الإنسان وتعيين مدى نشاطه ونتيجة كفاحه . . .

ولقد أجاب العصر الحديث فعلاً بأن الإنسان وحده

لا شريك له في هذا الكون، وإنه إله هذا الوجود، وأنه حر

تمام الحرية . وبهذا الجواب الذى قضى على تعاليم الأديان،

ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية، وعلى الرغم من

بقاء الدين في كثير من البلاد المتحضرة، ماضياً في دعوته،

محافظاً على مظاهر قوته . إلا أن الناس جميعاً حتى المتمسكين

بالطقوس وروح النصوص، قد سيطرت عليهم النزعة المادية

دون إدراك منهم، لأن جو العصر كله قد تشبع بها تشبعاً

لا تجدى في صده النوافذ المغلقة ولا الأبواب الموصدة فهو أوره

يقسرب إلى النفوس وهى لا تفطن ...

ما السبب في ذلك ؟ ..

السبب واضح : وهو أن التعادل الذى كان قائماً حتى

مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ... أى

بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان قد اختل منذ ذلك

الوقت بتوالي انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جهود الجانب

الدينى ، فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله

ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصوراً فى

أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى ،

تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب

الأرجح ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على

سيطرة العقل وحده ، ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون

تبعاً لحرية فكره ، وإنكار كل مالا يثبت بالبحث

والاختبار ، ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان

تكملة
عبد الله

أو وجود آخر غير وجوده فهو كائن وحده في هذا الكون...

وكان لهذا الاختلال في التعادل نتيجته الطبيعية التي لا بد أن تلازم كل اختلال في التوازن... وهو القلق. فالقلق السائد في النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب في ميزان التعادل بين العقل والقلب... بين الفكر والإيمان. وهذا الاختلال في التعادل لا بد أن يصحح نفسه بنفسه على مدى الوقت... وقد ظهرت في هذه الأيام بعض الدلائل. فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن وحده في هذا الكون... فهو يتشوق حينئذ إلى أحد غيره... إلى كائن أرقى... ولم يسعفه الدين بأطار جديد لهذه الفكرة التي جعل يحن إليها... فبقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ولكن في محيط العلم العقلي الذي لم يزل مسيطرا على فكره... وما الاهتمام بالأطباق الطائرة اليوم، وأمل الناس في أن تكون آتية برسالة من عالم أفضل

وكائنات أرقى ، إلا منفس عام يلفظ الشعور الذي جف
بجفاف المنبع الديني ، ويريج الإنسان من قلقه ، ويخرجه
قليلا من ضيقة بوحده في هذا الكون .

هذا التعادل واختلاله بين العقل والقلب في إطار مشكلة
الزمن كان موضوع مسرحيتي « أهل الكهف » ، كما أن هذا
التعادل أيضا واختلاله بين الفكر المطلق ممثلا في « شهربار » ،
والإيمان العاطفي ممثلا في « قمر » ، متحركا في إطار مشكلة
المكان ودورته كان موضوع مسرحيتي « شهر فراد » .

على أن لقلق الإنسان في العصر الحديث سببا آخر
متصلا بأمنه المباشر . فهو يخشى في كل لحظة دماره المادي
بيده هو نفسه . هذا السبب هو في عين الوقت نتيجة من نتائج
انتصاراته العقلية والعلمية . فهو قد أصبح قادراً قدرة مادية
هائلة ساحقة ، يمكنها في أي وقت أن تفلت من يده ، وإذا
افلتت فقد هلك . هذه القدرة أو القوة لا يلجمها غير
حكمته . . . وهو لا يضمن كثيرا هذه الحكمة . ومن هنا جاء

قلقه .. قلقه على سلامته وكيانه، فهو يعيش من يوم إلى يوم
في هذا العصر الحديث ناظراً إلى ميزان التعادل بين القوة
والحكمة، بعين زائفة شاردة...

هذا التعادل بين القدرة والحكمة وثنائيه واختلاله كان
موضوع مسرحيتي « سليمان الحكيم »

من كل ذلك تتضح وجهة نظري في قضية الإنسان .
فأزمة الإنسان في هذا العصر هي عندى نتيجة اختلال في
تركيبه التعادلى ..

وعلى ذلك يسهل استنتاج جوابي عن السؤالين
السابقين .

هل الإنسان وحده في هذا الكون ؟ .. وهل هو في
هذا الكون حر ؟ ..

لم أنشر رأياً صريحاً في هذا المعنى ومع ذلك فقد أصبح
لى ، فيما يظهر ، رأى في هذا الشأن ، لدى بعض النقاد
الأجانب الذين يعنون عادة باستخلاص هذه الاتجاهات

من الآثار. فأغلبهم ذكر في تعليقاته وبحوثه عن مسرحيات
العشرين التي ترجمت أن الفلسفة المسيطرة عليها هي قدرة
الإنسان المحدودة أمام قدره ، وأن مصير الإنسان عندى
مرتبط دائماً بكفاحه أمام القوى غير المنظورة . . . وشذ
بعضهم عن ذلك قائلاً إن المعتقدات عندى قد تحررت من
قدسيته لتلبس رداء إنسانيتها . ولكن الإنسان فيها ظل قلقاً
مهدداً بقوة خفية .

مهما يكن الرأى فالمفهوم مما كتبه هؤلاء أنهم
استنتجوا من خلال مسرحى أنى على أى حال لا أؤيد فكرة
وحدة الإنسان أو حريته المطلقة فى هذا الكون .
وهذا ما لا أنكره .

فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الإنسان ليس وحده
فى هذا الكون . . . وهذا هو الإيمان . وليس من حق أحد
أن يطلب إلى الإيمان تعليلاً أو دليلاً . فاما أن نشعر
أولا نشعر . وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً . وأن

اولئك الذين ياجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الايمان
إنما يسيثون إلى الايمان نفسه . فالإيمان لا برهان عليه من
خارج ، إني أو من باني لست وحدي . . . لأنني أشعر بذلك . .
ولم أفقد إيماني ، لأنني رجل متعادل .

ولكنني من جهة أخرى أفكر بعقلي . لا لكي أدعم إيماني
بأنني لست وحدي . . . بل لأعرض المسألة أمام تفكيري
بعيدا عن الايمان .

هل يقبل العقل فكرة الكائن الأرقى ؟ . . . أي الأرقى
من الإنسان ؟ . . .

إن الحيوان حتى في أعلى مراتبه لا يدرك فكرة
الأرقى . . . إنه يدرك فكرة الأقوى . . . ، فالعالم بالنسبة
إليه إما مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها وإما مماثلة له في القوة ،
وإما أقوى منه يتحاشى مواجهتها . . . والقوة عنده بدنية
بحتة .

أما الإنسان فيستطيع بعقله أن يدرك فكرة الأرقى . . .

أى الأقوى ذهنا وروحا...

وهو يستطيع أن يرى فيما حوله آثار أعمال تدل على
ذهن أقوى وروح أرقى ملايين المرات من ذهنه وروحه...
فما الذى يمنعه عندئذ من قبول فكرة وجود الأرقى؟...
إن الحيوان قد قبل الفكرة فى محيطه المادى البدنى،
فتحاشى قتال الأقوى...، ومعنى هذا التحاشى هو إيمانه
بوجوده... فلماذا لا يقبل الإنسان الفكرة فى محيطه الذهنى
الروحى، ويؤمن بوجود الأرقى؟..

إن عقلى يقر الفكرة.

ولكنه لا يستطيع أن يصنع لها صورة جدية واضحة تتفق
مع جلالها

لأن العقل لا يصنع غير الصور التى تمشى مع منطقته،
ومنطقة قائم على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع
فى نطاق اختباراته، فهو إذن أن يصنع للأرقى غير صورة
لما يعرف، بحسمة غاية التجسيم فى عرفه ونظره... وهذا

لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة ... ولعل هذا
سبب من أسباب الألحاد

فنحن نسأل العقل أن يصنع لنا صورة لله فيخفق ،
فبدلاً من أن نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة
الله ، ، ،

فلنتو من اذن بالقلب وحده ... تلك قوته . ولندع
العقل يفكر في مجاله وحده ... تلك أيضاً قوته ...
وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية
الإنسانية .

تصادف بين العقل
والقلب

1
بقي أن أجيبك : هل الإنسان حر في هذا الكون ؟ .. ؟
ما من جواب يمكن أن نلقاه إلا من القوتين المنوط بهما مهمة
الإدراك والوعى ، وأعني العقل والقلب ، كل منهما يجيب
على طريقته وبأسلوبه ووسيلته ... فالعقل قبل أن يبدى
رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج . سينظر إلى الطير
وهو يبني عشه هذا البناء المحكم ، وإلى النحل وهو يقوم
بأعماله العجيبة في الخلية ، ويتساءل في أى مدرسة يتعلم الطير
والنحل هذه الأعمال البارة ؟ .. فيجيبه الملاحظة ان الطير
والنحل واكثر الحيوان والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ،
ولكنها تولد وفي أعماقها هذه المعرفة المخزونة فيها — تلك التى
تسمى الغريزة — فتدفعها دفعا وتحركها تحريكا لصنع هذه
الاعاجيب ... عندئذ يتساءل العقل : والانسان ؟ لماذا يولد
ولا يستطيع هو أيضا أن يبني بيته الجميل ويفرس بستانه الرائع

بغير تعليم ولا تدريب ؟ .. ما بال الإنسان يولد عاجزا حتى
عن المشي والكلام ولا يختزن في جوفه حضارته كالنحل
والنمل ؟ ما باله يولد متروكا لنفسه ، مجردا من الغرائز الانشائية ،
محتاجا إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة خطوة ؟ ..

نعم ، الحيوان يولد مكبلا بالمعرفة المتحجرة أى
الغريزة ، والإنسان يولد مجردا ... أى حرا .. وعليه هو
ان يكتشف المعرفة من جديد ، فى كل مرة يولد ... إن
المعرفة المتحجرة عند الحيوان ، تلك التى تولد معه ، هى
معرفة مفروضة عليه فرضاً ، لا يستطيع أن يتجنبها ولا أن
يحيد عنها ولا ان يبدل أو يغير فيها ، ولا أن يحدد فى لها
أو شكلها ... ان خلية النحل هى خلية النحل منذ وجد وإلى
ان ينقرض . وليس فى مقدور النحل أن يصنع خلية على صورة
أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامدا أو يعيش ليصنع شيئا
آخر ...

تلك هى الجبرية التى لا حرية معها .

أما الإنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقبده ويكبله
ويجبره على صنع شيء بعينه طول حياته ، على نحو خاص لا يملك
أن يتجنبه أو يغيره أو يحيد عنه ... إن النحلة تولد وهي
تعرف بالضبط ماذا هي صانعة في حياتها لأن مهمتها معروفة
محددة .

أما الطفل فيولد ولا أحد يدرى ماذا هو صانع في حياته
لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كمهمة النحلة والنملة ...
بل إن سلوكه في الحياة هو الذي سيحددها .
يستنتج العقل إذن من هذه الملاحظة والمقارنة الجبرية
التي فرضت على النحل والنمل لأداء عمل معين على وجه
معين ، لم تفرض على الإنسان الذي ترك حراً يواجه
مصيره ...

ولكن هذه الحرية التي تركت للإنسان ، هل هي مطلقة ؟ ..
هل هي مقيدة ؟ ..
ربما استطاع العقل أن يوافق بلسان العلم - وهو أحد

مولوداته وأدواته - على أن حرية الإنسان مقيدة ،
قياسا على حرية الحركة بالنسبة إلى المادة .. فقد قال لنا
« نيوتن » ومن قبله « جاليليو » ان الجسم المتحرك يظل
يتحرك في اتجاهه الا إذا تدخلت في ذلك قوى خارجية ..
ذلك قانون القصور الذاتي المشهور بالنسبة إلى المادة ، وقد
يصح أيضا بالنسبة إلى حرية الإنسان ... أى ان حرية
الإنسان تظل تتحرك في اتجاهها إلا إذا تدخلت في أمرها
قوى خارجية ...

وهنا ينبغي ان نسأل العقل أو العلم هذا السؤال المعضل
ما هي هذه القوى الخارجية ؟ ..

في نظر القلب أو الإيمان الجواب بسيط ... ولكن
العقل سيحاول ان يبحث عن الجواب في عالمه المادى
دائما ... أى أنه سيتحاشى الاقتراب من منطقة الشعور
الآدمى الداخلى الذى لا يعقل بالمنطق . سيقول العقل ان
القوى الخارجية هي بمجموع الإرادات الأخرى المتعارضة

أو المقاومة ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة . وسواء كانت في مجتمع معقد أو مجتمع بسيط .

وقد يلجأ العقل إلى العلم ليعقد المقارنات بين قضايا انحراف الأبرة المغناطيسية، وبين انحراف الإرادة الإنسانية، وقد يشبه مجال حركة الإنسان في مجتمعه بالمجال الكهربى المغناطيسى فى المادة، ليخرج من كل ذلك بتفسير يقبله منطق المادى للقوى الخارجية المؤثرة فى حركة الحرية البشرية . وقد يقتنع العقل . وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضى يتصيد الأدلة والبراهين داخل نطاق عالمه المعهود .

أما القلب فهو مقتنع بغير دليل ولا حاجة إلى الأدلة فى عالم القلب والايمان . لأن الدليل هنا مفسد للأقتناع . بل ان الأقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب . لأن معناه أنه جاء بعد شك . والقلب لا يشك لأنه لا يفكر . . . انه يشعر . . . إنه فجأة يضىء كمصباح الكهرباء .

فالقلب الإنسانى يشعر أحيانا شعورا لا تعليل له بأنه ليس

وحيدا ولا حرا في هذا الوجود. ألا يحدث أحيانا أن تشعر
كأن شخصا ما في مكان ما ينظر اليك . فإذا رفعت رأسك
وبحثت وجدت فعلا ان شعورك صادق ؟ ألم تلاحظ مرة
أو مرتين في حياتك أن حادثا معيننا وقع لك في ظرف
معين فغير مجرى حياتك على وجه معين . وتحاول ان ترد
ذلك إلى المصادفة فتعجز ، لأن تلك الإرادة الخارجية
تدخلت بصورة منظمة منسقة تم على وعي يعقل ما يفعل
ويعني ما يريد ، لإحداث نتائج مقصودة بالذات ، ما كانت
تحدث لولا هذا التدخل الذي لم يكن متوقعا ؟ ارادة خارجية
هاكل عناصر الإرادة الرشيدة الذكية تهبط على ارادتك
العادية فتغير اتجاهها وترسم لها طريقا جديدا ؟ . ان عقلك
أحيانا ما يبلغ في منطقته من الصلابة والدقة ، ليأبى ان يخضع
مثل هذا الحدث للتفسير العقلي المعتاد بالسهولة المعتادة . . .
ان المناصرين للعقل والعلم يكتفون في مثل هذه الحالة
بهز رؤوسهم . . .

أما المكابرون والمتعصبون فهم ماضون في الانكار لأن
العقل وحده عندهم هو الإله .

أما أنا فأعترف بالعقل والعلم وحرية الإنسان ، ولكن
لا يمكن أن أنكر القلب والايمان . إنى لا أعيب على العقل
أن يشك ... لأن وظيفة العقل هى الشك .. أى الحركة ...
فإذا انقطع عن الشك فى بحوثه وقوانينه ، ووقف عن الحركة
فى تقليب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى أجله .
أما القلب فوظيفته الايمان أى الثبات . فلنترك للقلب
اذن أمر تلك الحقيقة الثابتة التى تستعصى على كل حل وتستبهم
على كل تعليل ...

موقفى اذن من حرية الإنسان هو الآتى :
الانسان عندى حر فى اتجاهه حتى تتدخل فى أمره قوى
خارجية أسميها أحيانا القوى الإلهية ... حرية الارادة فى
الانسان عندى اذن مقيدة شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة
فى المادة ...

م. م. م. م. م.

والحرية المقيدة فكرة لا تروق لأكثر الأوروبيين اليوم
لأنهم — كما قلت — قد ثقلت بهم كفة العقل والعلم والفكر
التي تؤله الإنسان وحده في هذا الكون .

وقد تجلى ذلك في تعقيب أولئك النقاد الذين أشرت
إليهم فقد رأى أحدهم أن موقفي وإن كان لا يتعارض كثيراً
في أحكامه النهائية ، مع ما جاءت به الأجيال العصرية إلا
أنه يعبر عن عقيدة تهزأ بها أوروبا بغير حق — كما قال — هي
مأساة الحياة تتكشف عن عجز الحرية الإنسانية ...
على أن الحقيقة التي أحب أن تستقر في وضعها الصحيح هي أني
« تعادلي » أي أن إرادة الإنسان في كفتها تعادلها الإرادة
الإلهية في كفة أخرى ، والعقل البشري في كفة يعادله
الإيمان . في كفة ...

بهذا التعادل يعيش الإنسان ويعمل ...

غير أنني قبل أن أبلور أفكاري وأصوغها بما يطابق هذه
النظرية « التعادلية » قد حاولت تفسير موقفي من حرية الإنسان

٢٦

١٤

?

معلقة
عن نظريتي
و عن الإيمان

ووحدايته . فقلت في كتابي « فن الأدب » :

« هذا الموقف من قضية العصر قد وقفه
وتأملته .. فالإنسان عندي ليس إله هذا العالم ، وهو ليس
حرا .. ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة
الالهية ... هذه الإرادة التي تتجلى للإنسان أحيانا في صور
غير منظورة من عوائق وقبود على الإنسان أن يكافح
لاجتيازها والتغلب عليها .. فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم
الله ويضع أمامهم العقبات ... فطريق النبي ليس معبدا ،
ولكنه يجاهد في تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز
الناس ... إن قضية العصر اليوم ، وهي التي تقوم على
حرية الإنسان سواء باعتباره فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما
تتحد وتتلاقى في أمر واحد ، هو إنكار الله ، إنكار القوى
غير المنظورة التي تؤثر في مصير الإنسان ...
على أن شعوري بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة في
مصيره ليس مؤداه التشاؤم ... »

كما أنى لست أرى فى النظريات الأوروبية القائلة بحرية
الإنسان أمام مصيره ما يدعو إلى التفاؤل .. العكس هو
الأصح .. فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض
كانت فى رأى من الأسباب التى أدت إلى كوارث العالم
اليوم ... فالإنسان الإله الحر الذى لا شريك له ولا سلطان
لقدر عليه ، مع ما ركب فيه من غرائز الحرب والكفاح .
عندما جحد وجود غيره على الأرض وأنكر كل قوة غير
قوته فى الدنيا ، لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ونشاط
كفاحه غير نفسه ، فانقلب محارباً نفسه ، هادماً ذاته ...
فى حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التى تواجه
الإنسان وتؤثر فى إرادته وحريته ، تدفع به فى نهاية الأمر
إلى أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل
ضد هذه العوائق المستترة وهذه القوى الخفية ... فالشعور
بعجز الإنسان أمام مصيره هو عندى حافز إلى الكفاح
لا إلى التخاذل ... أهل الكهف ، كالحرا ضد الزمن ...

١٨

ولبت أحدهم متعلقاً بالحياة، يقارع الزمن بسيف بنار هو
«القلب»، إلى آخر لحظة... و«شهر زاد» جاهدت محاولة
أن ترد إلى الصواب زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه
وآدميته، وأن تعيد إليه إيمانه ببشريته... و«سليمان»
جاهد ضد إغراء القدرة التى كادت تنخرس صوت الحكمة...
وهكذا كان الانسان عندى يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية
التي شعر بتأثيرها في حريته وإرادته ومصيره...

لو اتجه تفكير الأدب الأوروبي المعاصر إلى هذه الوجهة،
ودعا إلى حشد قوى الانسان ضد القيود الخفية التي تكبل
حريته الحقيقية، لسكان في هذا النوع من التفكير بعض
الحل لازمة الانسانية في العصر الأخير... فأزمة الانسان
اليوم هي حربه ضد نفسه... فهو ليس له قريع آخر غير نفسه
لم يعد في غروره يرى سوى حريته المطلقة... لم يعد يرى
القوى الأخرى غير المنظورة، التي تحرك وجوده وتلعب
بمصيره، وتستوجب نضاله وتتطلب تفكيره.....

هذه أنا ها

الآداب الأوروبية في هذا العصر لا يريد إذن أن يقف
من الإنسان موقفاً صريحاً صادقاً . فالباس الإنسان على
هذه الصورة ثوباً مسرحياً من قدرة وحرية لا حد لهما ،
ووضع حالة الألوهية هكذا فوق رأسه . تبرق بأشعتها
الصناعية ... كل هذا الخداع .. شأن كل خداع .. مهما
يكن من سلامة دوافعه وأهمية أهدافه . فإن له من العواقب
ما يهدد بصيرة الإنسان .

ط. ب. ل.
عكس
الوجودية ؟
حرية
human conditions

الآن وقد كشفت لك عن رأيي في وضع الإنسان من
الكون ، على أساس انه يعقل وجود الأرقى ويشعر به ،
✓ ويدرك انه حر الإرادة في نطاق إرادة خارجية عليا .
فلننتقل إلى وضع هذا الإنسان في المجتمع بحالته هذه
وإدراكه هذا ...

ما هو المنتظر من هذا الإنسان أن يصنع ؟ إنه كما ذكرت
ليس كالنحلة ركب فيها عملها من البداية إلى النهاية ...
لا ... انه أعطى آلة مفكرة قابلة للنمو ، وآلة شاعرة قابلة
للنمو أيضا ... وهذا كل شيء ...

ماذا يصنع ؟ .. وفي أي طريق يسير ؟ .. لا بد له من
هداية . لا بد له من نموذج ... هذا النموذج هو إدراكه
للأرقى ، هذا الإدراك للأرقى هو دليله الذي يقوده في
طريق الحياة الإنسانية ... هو حافزه للتطور ...

هذا الإدراك للكائن الأرقى ليس عندى مجرد عقيدة
دينية . بل هو ضرورة انسانية . شأنها فى ذلك شأن الضرورة
الحيوانية التى تحمل الحيوان على إدراك الأقوى .

فإدراك الحيوان لوجود الأقوى هو الذى يحمله على
اكتشاف منابع قوته الذاتية ، وتنميتها وإعدادها لساعة
المواجهة واللقاء ولو فرضنا أن حيوانا عاش وحده فى
جزيرة نائية ، اطمأن فيها إلى وجوده ، ولم يشعر بقوة فيها غير
قوته ، التى لا يرى حاجة إلى استخدامها أو مقارنتها بأخرى ،
لكان من الجائز أن تضم هذه القوة فيه وتضمحل . . .
فالشعور بوجود الأقوى ينشط القوة . كذلك الشعور
بوجود الأرقى عند الإنسان ينشط الرقى . .

إن نظرية التطور عند لامارك وداروين وسبنسر لن
تصح فيما يتعلق بالإنسان إلا إذا أدرك وجود الأرقى . . .
فنمو عقله وقلبه رهن بهذا الإدراك . . . طبقا للقاعدة
التي تقول بتطور العضو تبعا للوظيفة . تلك هى الضرورة

الإنسانية التي ارتبها على اعتقاد الإنسان بأنه ليس وحده في الوجود... هذه الضرورة التي تحمله على اكتشاف نفسه، وارتداد منابع قواه الذهنية والروحية وتنميتها وإعدادها لمواجهة تلك الأمور والقوى الخفية التي تبهر عقله وتخلب لبيه... وهو في هذا الكشف والارتداد والتنمية يتغير ويتطور وبسمو على ذاته طبقة بعد طبقة... فردا ومجتمعا...

والإنسان قد تطور فعلا بناء على هذا الإدراك للأرقى بعقله وقلبه... ثم وقف تطور الإيمان القلبي، كما ذكرت، واستمر التفكير العقلي يتطور وحده في قفزات باهرات، جعل العصر الحديث ينسى النموذج الأصلي وهو الكائن الأرقى أو فكرة الله، ولا يرى غير العقل المنتصر بمفرده...

هذا الاختلال في التعادل بين تطور الفكر وتطور

الآيمان، قد عرقل سير الإنسان في طريق الرقي الكامل،
كما عرقله أيضا اختلال آخر في التعادل بين تطور الفرد
وتطور المجتمع ...

قلت لك إن الانسان ليس خاضعا للجبرية التي تخضع
لها النملة والنحلة . فهو قد خلق حرا يتكيف عمله ويتحدد
عنه ^{عنه} اتجاهاه ، تبعا لظروف اتصاله بالحياة ومهما يكن من أمر وجود
القوى الأخرى التي تؤثر في إرادته ، فإن هذا التأثير لا ينفي
عنه صفة الإرادة الحرة في كثير من أوضاعها .

وما دام الانسان حر الإرادة ولو بعض الحرية ، فهو
إذن مسئول . لأن المسؤولية تنبع من الحرية . فالنحلة أو
النملة ليست مسئولة عن عملها لأنها خلقت به . أما الانسان
فلم يخلق بعمله . فهو إذن مسئول عنه .

وإذا ذكرت مسؤولية الانسان منذ القدم ذكر الخير
والشر . لأن الخير والشر هما الموجب والسالب في كهما .
العلاقات البشرية . والخير والشر في رأي لا شأن لهما بالانسان
الفرد . ولا وجود لهما إلا بالمجتمع فلو فرضنا وجود شخص

منعزل في جزيرة، ليس فيها غيره وغير أشجار فاكهة يطعم
منها، فإن الخير والشر لا يوجدان في هذه الجزيرة. فإذا
فرضنا أن شخصا آخر هبط عليه، وعاشا معاً، فإن الخير
والشر يولدان ليعيشا معهما. فقد يحدث أن يقطف أحدهما
ثمرة شبيهة يطعم فيها الآخر فيختلسها منه أو يغتصبها لنفسه.
وقد يحدث أن يمرض أحدهما فيقوم الآخر على خدمته
ومعونته. فالخير وهو الفعل الإرادى الذى يؤدي إلى نفع
الغير، والشر وهو الفعل الإرادى الذى يؤدي إلى ضرر
الغير، لا يوجدان إلا بوجود الغير. فلا بد إذن من وجود
الغير أو بعبارة أخرى المجتمع حتى يوجد الخير والشر. فالخير
والشر لم يولدا مع الإنسان، ولكنهما ولدا مع المجتمع أو على
الأصح بعد ميلاد المجتمع. وأقصد بالمجتمع هنا مجرد اجتماع
شخصين فأكثر. وهنا يصح أن نسأل: أيهما ولد قبل الآخر؟
الخير أو الشر؟.. في رأي أن الشر والخير كالليل والنهار
يتعادلان ولا ندرى أيهما أسبق... وقد يكون الشر هو

وذهب إليه
إرادته
الشر

XXX
عند

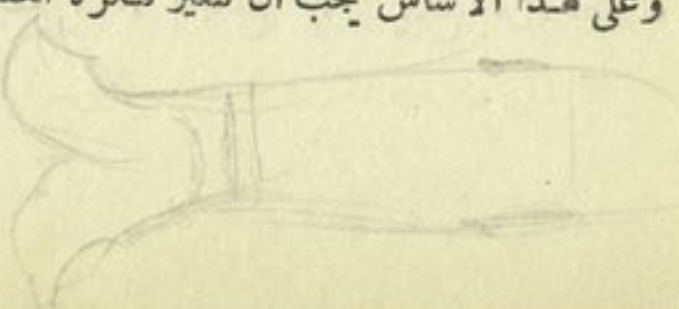
?

الأصل في الإنسان ، لأنه متصل بالوعي الأساسي للإنسان :
وهو الشعور بالذات ، وحب هذه الذات . . .
فحب الذات الغريزي في كل الموجودات الحية ومنها
الإنسان ، يدفعه إلى إرضاء هذه الذات ولو أدى ذلك
إلى إيذاء الغير . وكلما كان المجتمع بدائياً همجياً انطلقت هذه
الآثرة الغريزية على فطرتها غير مبالية بضرر الغير . ولكن
المجتمع في تطوره نحو النظام رأى أن ضرر الغير لا بد
أن يوازن ويعادل بفعل آخر هو : نفع الغير . وكلما ارتقى
المجتمع اتخذ نفع الغير وضعاً هاماً من أوضاع السلوك العام ،
فوجد الخير وحقّر الشر . لأن المجتمع يعلم أن الخير في حاجة
إلى دعوة وتشجيع لأن حب الغير أشق وأصعب عند
الإنسان من حب النفس فالخير وليد الروح والتهذيب ، ولكن
الشر وليد الغريزة والطبع وكان من أثر هذه الدعاية بصورها
المفرقة أن وضعت العلاقة بين الخير والشر وضعاً مصطنعاً
أدى إلى انشطار المجتمع إلى أخيار وأشرار ، وأبرياء ومجرمين .

وهذا التقسيم ليس في مصلحة الإنسان ولا المجتمع .
ذلك أنه يحفر هوة وهمية بين الإنسان والإنسان . ويصم
طائفة من المجتمع بوصمة سوء عرقية لا تزول عنهم أبدا .
وهذا مع ما فيه من الحاق الشلل والعقم بجزء من جسم المجتمع ،
فأنه مخالف لحقائق الأشياء ... لقد لاحظ أحد النقاد الأجانب
أن مسرحى يقوم على أشخاص تتحد مرا كزهم لا بالنسبة
إلى الخير والشر ، بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع وهذا
صحيح . فأنا لم أبرز قط أشخاصا ينتمون إلى الخير مطلقا أو
إلى الشر مطلقا . فأنا أرفض هذه الفكرة ، ورفضتها
دائما في كل ما كتبت . بل إنى رفضت فكرة
الثواب السماوى للخير المطلق ... راجع قصتى وطريد
الفردوس ، ... لأن الأنبياء والرسل أنفسهم تعرضوا
لمعتاب الله ، ولا يمكن أن يعاتب الله على الخير .
فالإنسان عندى قيمة ثابتة ، تلحق بها أحوال متغيرة
من الخير والشر والصحة والمرض . وأن من يأتى عملا يضر

الغير ، يستطيع أن يأتي عملاً ينفع الغير . وهو لذلك ليس
خيئاً ولا شريراً ، ولا صحيحاً ولا مريضاً ، في أحواله
العادية ، إنما هو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات
المختلفة المتغيرة . فهو يكون في حالة مرض ولكنه يعمل
للشفاء أى للاقترب من حالة الصحة . ذلك أن الإنسان
باعتباره قطعة من عالمه المتحرك ، ما يكاد يقع في حالة حتى
يبدأ في التحرك نحو الحالة المقابلة أو المعادلة . وهو لا يبقى
في حالة واحدة طويلاً إلا بوسائل صناعية . فمن بقي في
حالة الشر أكثر مما ينبغي واستمر يضر الغير ، فإن ذلك في
أكثر الأحيان راجع إلى أن المجتمع سد في وجهه طريق
الانتقال إلى الحالة المعادلة التي تتيح له فعل الخير . لذلك
أرى أن فكرة الخير والشر يجب أن تتغير في نظر المجتمع .
وأن المجتمع يجب أن يقف من مرتكب الشر لا موقف
المنتقم ، بل موقف المطالب بحالة التعادل ، أى بفعل الخير
وعلى هذا الأساس يجب أن تتغير فكرة العقاب . فعقوبة

من الخير إلى الشر
من الشر إلى الخير



مرتكب الشر بحبسه . أى بحرمانه من حريته ففكرة خاطئة
لحرية الإنسان يجب أن تبقى له . وثمن الجريمة يجب أن
يدفع لا من حرية الانسان ، بل من عمل إيجابى يوازن
ويعادل العمل الذى ارتكبه . إن من يرتكب الشر أى من
يقوم بالعمل الإرادى الذى يؤدى إلى ضرر الغير ، يجب أن
يدفع الثمن بعمل إرادى يؤدى إلى منفعة الغير . اما أن يؤدى
المذنب الثمن بمجرد حرمانه من التدخين أو الطعام أو الاتصال
بأهله وذريه ، فهذا إجراء سلبي لا يعود على الغير بفائدة ،
ويعود على المذنب بشر العواقب ، فهو يفقده آدميته ،
ويقلبه وحشاً بشرياً يتدرب فى سجنه وقفصه على التمر
للمجتمع الذى وصمه بوصمة الاجرام . وهذا ما يفسر لنا
كيف نجحت السجون وتنجح فى مختلف الأمم - مهما يبلغ رقيها -
فى تخريج طراز خطر ماهر مدرب من المجرمين المحترفين .
ذلك أن فكرة العزل عن المجتمع . تحمل فى نفسها خطرهما
على المجتمع . . . فالمجتمع الذى يدفع عن حظيرته

شخصاً ولو لمدة محدودة يقبله في الحال عدواً ناقماً .
وأن في طرد مرتكبي الشر بعيداً عن المجتمع ، وتجميعهم في
مكان واحد ، لما يربطهم جميعاً برباط واحد ، ويجعلهم يكونون
فيما بينهم مجتمعاً آخر ، تسوده تعاليم أخرى معادية لتعاليم
المجتمع الذي طردهم . وهكذا تتم عملية الانشطار بين أهل
المجتمع الواحد ، وينقسم الناس إلى أخيار وأشرار بحكم
القانون والعرف ، لا بحكم الواقع والحقيقة . ذلك أن من
بين أفراد المجتمع مذنبين ومرتكبي شر لم يقبض عليهم ولم
يقعوا تحت طائلة القانون ، استمروا في حياتهم العادية بين
أهلهم وذويهم ، يتحركون في المجتمع بكامل حريتهم وحقوقهم
يصنعون الشر مرة والخير مرة ، إلى أن تغلب حالة على
حالة ، فيظهر خيرهم ونفعهم للناس فيرضى عنهم المجتمع ، أو
يظهر شرهم وضرهم للناس فيطالبوا بتقديم الحساب . وهذا
الحساب هو وحده الذي يجعل منهم المجرمين المحترفين مادام
يتخذ شكل الحبس الذي أشرنا إليه ، أي القفص الذي

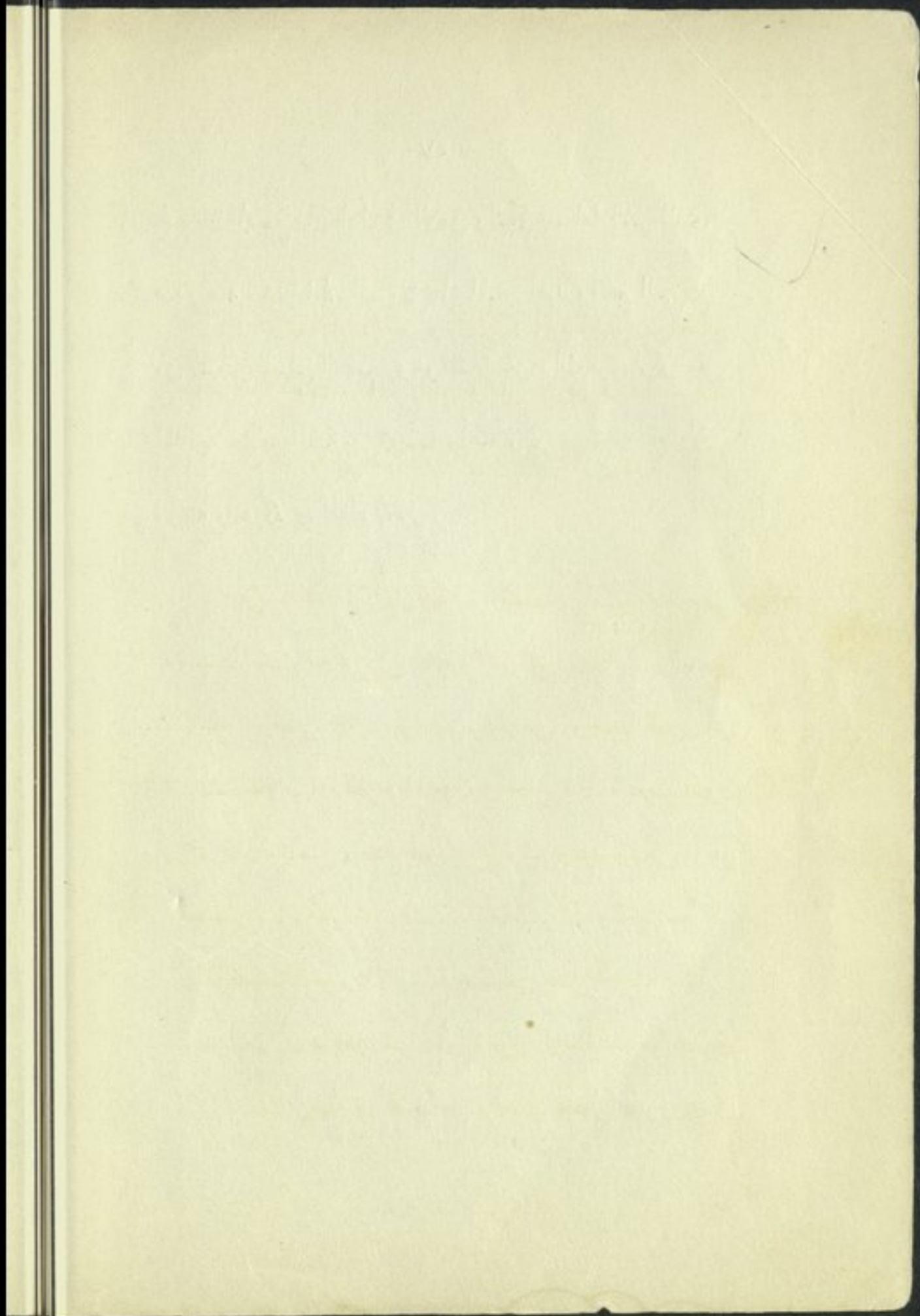
المرء
يحب
المرء
يحب

للمرء
للمرء
للمرء

تتدرب فيه الوحوش على صقل مخالب الأجرام .
والرأى عندى هو إعادة النظر فى طريقة الحساب
والعقاب، فيما عدا عقوبة الاعدام للقتل العمد . فهى لا بد أن
تبقى . لا على أنها عقوبة . بل لأنها وضع طبيعى . فطبقا لمذهب
التعادل : لا شئ يعادل حياة الانسان غير حياة الانسان . أما بقية
الجرائم التى يعاقب عليها عادة بالحرمان من الحرية أى بالحبس
والسجن فهى التى يجب أن تتغير وتوضع على أساس جديد . على
أساس المعادلة لا بين الحرية والشر . . . بل المعادلة بين
الخير والشر . . . أى من يرتكب فعلا يضر الغير يجب أن
يعادله بفعل ينفع الغير . وعلى هذا الوضع يجب أن تلغى
السجون ، ويقام بدلا منها مصانع وأدوات إنتاج . فمن فعل
شرا بالمجموع عليه أن ينتج خيرا يفيد المجموع دون حاجة إلى
أن يطرد من مجتمعه أو يقصى عن أهله وذويه ، أو يحرم من
حرية فى ممارسة حياته العادية . كل ما يطلب منه هو أن
يؤدى ثمن الشر الذى ارتكبه من انتاجه . يجب أن ينتج

لحساب المجتمع ما يعادل في الزمن والسكم جسامه الشر الذي
صدر منه . هذا الحساب الايجابي المنتج أفيد وأنفع للمجتمع
من السجن السلبي العقيم . وهو فضلا عن ذلك مبق لكرامة
المذنب ، لأنه يبقية بين مجتمعه وأهله ، أى في البيئة الصالحة
لنوبته وتحركه في اتجاه الخير . . .

منطقيا انما
غير مطلقا ان
في المكان ان يترك
الإنسان شره
بجسامته كل
الخير والحق
غير قادر على ان
علا محاد له
كسرة كبيرة
او اتصال خطير
بأنه لا يجوز
لأنه لا يولد
على الخير
انما غير
منطقيا انما
في هو حقا



ووجود الخير والشر يؤدي إلى وجود الضمير. والضمير
خاص بالإنسان. لأن الخير والشر لا يعرفهما الحيوان.
فالحيوان قد ينفع ويضر، ولكن بالفعل الغريزي لا بالفعل
الإرادي.

ومتى انتفت الإرادة، انتفت المسؤولية، ومتى
انتفت المسؤولية عن الخير والشر انتفى معناهما. والضمير
كالخير والشر لا بد لوجوده من وجود الغير أي
المجتمع فالإنسان الفرد المنعزل في جزيرة نائية يعيش بدون
ضمير، لأنه يعيش وحده بدون خير وشر وغير ولكن ما هو
الضمير؟.. أهو مجرد الشعور بأن الشر شر والخير خير؟.
بماذا نصف شعور الارتياح عند من يقتل أخذاً بالثأر،
وهو يعلم أن ما فعل شر؟ أو شعور الرضا عند من يسرق
ثرياً ليمسك رفقته؟. لا بد من وجود عنصر ضروري في

الشعور حتى يوجد الضمير . هذا العنصر هو الاحساس
الذاتي بالذنب هو إحساس مرتكب الشر بأنه أحدث بالغير
ضرراً جديراً بالأصلاح . الضمير هو إذن شعور الذات
بشر لحق الغير لم يقدم عنه حساب . ذلك أن المذنب الذي
يعاقب على ذنبه أو يكفر عنه التكفير الكافي لا يسمع في
أعماق نفسه صوتاً للضمير . فالضمير لا يتكلم إلا ليذكر
بالمديونية قبل الغير أو بعبارة أخرى يذكر النفس أن الشر
الذي ارتكب يجب أن يعادل بخير . هذا الشعور بالتعادل
يسمى في عرف الأخلاق بالعدل . فالعدل هو المظهر
الأخلاقي للتعادل : والضمير إذن هو الشعور بالعدل ، أو
على الأصح : شعور الذات بعدل لم يتحقق نحو الغير .

والضمير كما يوجد عند الفرد يوجد عند المجتمع . فالمجتمع
يتولد فيه أيضاً شعور بأن عدلاً لم يتحقق نحو الغير ، أي
نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة أخرى . وهنا تقوم
الثورات الاجتماعية لتصحيح الوضع وتعيد حالة التعادل ، التي

تسمى العدالة أو العدل الاجتماعي .

في محيط ، الأخلاق ، الضمير - الفردى أو الاجتماعي -
هو الحارس المنوط به الصياح لطلب العدل أى التعادل .
أما في محيط السياسة والاقتصاد فإن الحارس هو القوانين
الآلية التى تعمل من تلقاء نفسها ، كما تعمل قوانين الغريزة
في محيط الحيوان والنبات .

ففي السياسة الدولية لا بد دائما من توازن أى تعادل بين
القوى . وقبلها حدث في تاريخ الأمم أن انفردت طويلا دولة
واحدة بالقوة في العالم . حتى يوم كادت الدولة الرومانية أن
تسيطر بمفردها على الدنيا انشطرت هي نفسها إلى قوتين ،
إحداهما في روما بزعامة كنافيوس والأخرى في الاسكندرية
بزعامة انطونيوس . ثم حدث لها نفس الأمر في العهد
المسيحي ، حيث قامت الدولة الرومانية الغربية في روما ،
والدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية . وهكذا وهكذا ..
وفي السياسة الداخلية لا بد دائما أيضا من توازن أى

تعاذل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم . حتى فى عهد السلطان
المطلق فإن قوة المحكوم كانت تجد لها منفذا وسبيلا من
خلال رجال الدين أو رجال الفكر . فلها استطاع الشعب فى
العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ، انشطرت قوته نفسها
إلى قوى مختلفة فى صورة أحزاب تتوازن وتتعاذل كي تحتفظ
بوجودها الضرورى للتعبير عن إرادة من تمثلهم من طوائف
الشعب . فإذا تغلبت طائفة فى النهاية وابتلعت كل ما عداها
من الطوائف والطبقات واتحدت فى قوة واحدة تشمل
الدولة كلها فإن هذه القوة أيضا لا تلبث أن تولد قوة
أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور . وقد تنحق وتكبت
وتهزم وتنحق ولكنها لا بد يوما أن توجد ، لأن قانون
التعاذل الذى نرى مظهره فى الشهبى والزفير هو الذى يعمل
هنا أيضا ونرى مظهره فى وجود حركة توازن حركة ...
لأن هذا هو شرط الحياة ...

أما فى الاقتصاد فقانون التعاذل صارم فى عمله . فلا بد

أن يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، كالتوازن بين الشهيق والزفير ، فإذا زاد العرض زيادة فاحشة على الطلب انعدمت قيمة السلعة ، وإذا زاد الطلب زيادة فاحشة على العرض ، ارتفع السعر واختنق السوق ، وكان لابد من عودة التعادل بوسيلتين : إما بالمبادرة إلى زيادة العرض فيعتدل السعر وتعود الحركة الطبيعية للسوق ، وإما أن يتعذر إيجاد العرض ، فيظهر قانون آخر هو قانون التعويض ، خلاصته أن سلعة أخرى متشابهة إلى حد ما في الوظيفة للسلعة النادرة تحتل مكانها عوضاً عنها في سوق العرض . كذلك الحال في الميزان التجاري ، وفي التعادل بين الصادرات والواردات ، وفي معادلة الميزانيات بين الإيرادات والمصروفات وهكذا ... ما الاقتصاد إلا تعادل بين عوامل مختلفة تتحرك طول الوقت في الكيان المالي للأفراد والأمم ، وإذا اختلف هذا التوازن فترة ، فلا بد أن يعادل نفسه بنفسه بقوانينه الذاتية .

وللتعادل أدواته الفعالة التي يستخدمها دائما في كل محيط :
سواء في العلم أو في الأخلاق أو في الفن أو في الفكر أو في
السياسة أو في الاقتصاد إلخ . . . هذه الأداة هي ما يسمى برد
الفعل . كل فعل في كل محيط له رد فعل . ومارد الفعل هذا
سوى آلة التعادل للفعل إذا أسرف وجار واختل توازنه
وجاوز حدوده . رد الفعل أو بعبارة أخرى : رد التعادل إلى
الفعل الذي انحرف إلى مداه ونهايته . . . ذلك هو معناه
الحقيقي .

~~Hayes?~~ Newton

فالتعادل إذن يعمل بجهاز ذي محركين . رد الفعل والتعويض .
ولعل مظاهر التعويض من أوضح ما يصادفنا في الكائنات
جميعا . فكل ضعف تعرضه قوة . وكل نقص تقابله زيادة .
فالنحلة رقيقة الجناح ولكنها حادة الأبرة . والثقل في الوزن
والجسم غالبا ما يكون خفيف الظل والروح ، والفقيرة في
جمال الوجه أو الجسد أو الشكل كثيرا ما تكون غنية في
جمال النفس أو الخصال أو العقل . وهكذا وهكذا . . . ذلك أن

التعادل لا بد ان يتم على أى حال ، فكل فعل لا بد له من رد فعل . وكل ضعف لا بد له من قوة مقابلة . وكل نقص لا بد له من زيادة معادلة . فالشر والضعف والنقص والفبح ... حالات فى الكائنات لا يمكن ان تقوم بنفسها دون وجود اضداد تعادلها . وكل المشكلة هى أن الكائن العاقل وأعنى الإنسان ، هو وحده الذى يجهل أحيانا تلك الحقيقة ، فإذا لحقته حالة من تلك الحالات ، وقع فى اليأس ، فلم يسع الى اكتشاف القوى المعادلة الموجودة لديه وهو لا يدرك . فى حين أن الكائن الغريزى أى الحيوان أو النبات لا يقعد يائسا ولا جامدا ، بل يدرك بمعارفه الغريزية اين يجد قواه المعادلة .

1870
The first of the year was a very
cold one, and the weather was
very disagreeable. The snow
was very deep, and the wind
was very strong. The ice was
very thick, and the water was
very cold. The people were
very much distressed, and
the government was very
kind to them. The people
were very grateful to the
government, and the government
was very kind to them.

أشرت منذ لحظة في صدد الحديث عن التعادل بين قوة
الحاكم وقوة المحكوم — إلى رجال الفكر ، باعتبارهم المنفذ
الذى تتسرب من خلاله قوة المحكوم في عهد السلطان المطاق .
وهذا قد يدعو كإلى التساؤل : ما هو الفكر وما هو السلطان ؟
للإجابة عن هذا السؤال يجب أن ننصّر مرة أخرى ذلك
الرجل المنعزل في الجزيرة النائية ، هذا الرجل كيف يقضى
حياته ؟ إنه ولا شك يعمل في نهاره ليوفر لنفسه الماء
والملبس والمأوى فهو يقطف الثمر من الشجر ، ويصنع من
الأغصان كوخا ، وينسج من بعض الألياف ثيابا . . . أى
أنه يباشر العمل الضرورى لحياته المادية . فإذا جاء وقت
الراحة واضطجع في الظل الوارف ، وأرسل بصره إلى السماء
الصافية بدأ يفكر في حاله قائلا لنفسه : وبعد ؟ . . من أنا ؟ ..
وما معنى حياتى ؟ . أهى تسرنى ؟ . نعم ان حولى أشياء

جميلة؟ ... ماهو الجمال؟ ... هو ادراكى لخلق اعجب به ...
ومادمت قد وعيت الاعجاب فأنى اشعر بوعى آخر هو
التمنى ... انى اتمنى ان اكون على صورة تعجبني ... تملؤنى
اعجابا ... صورة أفضل ... مادمت قد وعيت الأفضل
لى ... فحاضرى اذن لا يعجبني تماما ... اذن أنا انتقد
وضعى ... على أى صورة أفضل أود اذن أن أكون؟ ...
هذا الكوخ أولا يجب أن يصير متسعا مرتفعاً ، لأشرف
منه على البحر ... وهذا البحر يجب أن اسبح فيه ...
فلأصنع اذن قارباً ... فاذا صنعت القارب فأنى أستطيع ان
احيط بالجزيرة وأعرف كل شواطئها ، وقد اتمكن من
استكشاف جزيرة أخرى قريبة إلخ ... هذا هو التفكير ...
وقد يؤدى هذا التفكير الى العمل . فينهض هذا الرجل فى
اليوم التالى ليحقق بالفعل كل أو بعض ما فكر فيه . وقد
يصادف من العوائق والصعوبات ما يصرفه عن تحقيق أفكاره ،
فيكتفى بعمله اليومى المعتاد ويجلس يسخر من تفكيره ، ويهزأ

بتبرمه ونقده لوضعه . وهكذا : إما ان ينجح الفكر في توجيه العمل ، وإما ان ينجح العمل في خنق الفكر .
فاذا فرضنا ان رجلا آخر قد هبط الجزيرة . وأصبح في الجزيرة رجلا ن أي مجتمع صغير . وكان احدهما أقوى عملا والآخر أقوى فكراً . فما الذي يحدث ؟ . ما من شك في أن أحدهما سيؤثر في الآخر . وهذا التأثير سيختلف في المدى والصفة تبعاً لسلطان كل منهما . فإما أن يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته . وإما أن يظهر سلطان الفكر فيوجه العمل حسب مشيئته . وإما أن يحتفظ كل منهما بسلطان معادل تجاه الآخر ، فيكون التوازن الذي يخدم من افراد أحدهما بالسيطرة انفراداً طاعياً .

فاذا انتقلنا من المجتمع الصغير في هذه الجزيرة إلى المجتمع الكبير في الأمم والشعوب ، فإننا نجد الصراع بين هاتين القوتين ، قوة العمل وقوة الفكر ، يحتل الجزء الأكبر من تاريخ البشرية . فالعمل من قديم مثل في السلطة المادية التي

تنولى أمور الناس بالفعل . والفكر يمثل فى السلطة الروحية
التي تبصر وتنقد وتفتح للناس الآفاق التي يمكن أن يمتد إليها
التطور الإنسانى .

ولعل أول مظهر للسلطان العلمى هم الملوك ، وللسلطان
الروحى هم رجال الدين . والصراع بين السلطانين معروف
من قديم . أما رجال الفكر من فلاسفة وشعراء وعلماء
وأدباء وفنانين ، فإنهم لضعفهم وفقرهم وتفكك الرابطة
بينهم ، قد اضطروا فى العصور القديمة إلى خدمة الأقوى
والأغنى وهم الملوك . وبقى رجال الدين يصارعون إلى أن
ضعف سلطانهم بضعف سلطان الدين نفسه ، وخاصة فى العصور
الحديثة . على أثر التقدم العلمى ، وركود التجدد الروحى .
على أن التقدم العلمى أو العقلى قد رد إلى رجال الفكر سلطانهم
المفقود ، فبدؤا يظهرون بمظهر القوة المستقلة فى إطار
الديمقراطية التي أضعفت الملوك ، ونورت الشعوب ومكنتها
من اقتناء الآثار الفكرية . وضمن العيش لرجال الفكر .

فالعصر الحديث إذن لم يعد عصر الصراع بين الملوك
ورجال الدين .

فما الذى حدث اليوم لقوة العمل وقوة الفكر ؟ . إن
الاجابة عن هذا السؤال تلخص كل روح العصر الحاضر .
فقوة العمل اليوم يمثلها حكام من صميم الشعب ، يصلون إلى
السلطة عن طريق الأحزاب والانتخاب . وسواء أكان
الحكم فى أيدي أحزاب متعددة تتناوبه ، أم فى يد حزب
واحد يسيطر وحده . فإن الشعوب الآن هى التى تحكم نفسها
بنفسها . وعندما يقال إن شعبا يحكم نفسه فمضى ذلك بالطبع
أنه اختار حكامه من أبنائه وهؤلاء الأبناء هم الذين

تتركز فيهم قوة العمل

على أن هذا الوضع الحديث لم يغير الشعور الخفى الذى
يكنه العمل نحو الفكر . فقوة العمل التى تمثل « التنفيذ »
تخشى وتكره دائما قوة الفكر التى تمثل « النقد والتوجيه » .
إن « العمل » فى كل زمان يحاول أن يلزم « الفكر »

بالطاعة . ففي عهد الملوكية يوم كان رجال الدين هم القائمين
بمهمة النقد والتوجيه اسلطان الملوك ، كان الملوك يجاهدون
دائما لخفض هذه الاصوات المرتفعة إلى جانب إرادتهم ،
فتارة يرغبون ويستميلون ، وتارة يهددون ويخيفون ، وتارة
يستولون عنوة على القوة الروحية ويعلنون أنهم هم الرؤساء
الحقيقيون للدين .

في العصر الحديث يتعرض «الفكر» لعين الخطر، ولكن
في صورة جديدة . فالحكم الديمقراطي أو الشعبي لا يستطيع
في كل الأحوال أن يخفض صوت «الفكر» الحر قهرا
وغصبا . ولكنه يستطيع أن يلغى وجوده إلغاء بأن يستدرجه
استدراجا إلى حظيرة السياسة العملية . ومتى دخل رجل
الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتوجيهه وتفسيره وأصبح
منضما إلى نظام معين ، يسير في اتجاهه ويعمل بتعليماته
ويخضع لأرشاداته . وبذلك يتجنب الحزب السياسي فكر اطلبقا
مناهضا لأرادته ، ويكتسب جنديا مطيعا يأتمر بأوامره .

وهذا الاستدراج للفكر كي يقع في حظيرة العمل ، يتم
في العصر الحديث بواسطة شباك ونفاخ صنعت بمنتهى البراعة :
شباك ونفاخ في صورة نظريات أدبية وفلسفية تؤدي كلها في
النهاية إلى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاماً يضر بمقومات
حياته ، أو يخضعه له اخضاعاً يقضي على كيانه الذاتي .

وبعض الواضعين لهذه النظريات من رجال الفكر
أنفسهم لم يقصدوا الاضرار بالفكر ، ولكنهم انجرفوا تحت
تأثيرات مختلفة . منها حنين بعضهم إلى العمل ، حيننا أفقدهم
الثقة في قوة الفكر الذاتية . خصوصاً في عصر بلغت فيه
المادية أوجها . وعصفت فيه الحروب بالقيم ، وزلزلت النظم ،
وتغلغلت آثارها المدمرة في نفوس الأفراد والجماعات ،
وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها حلاً ،
وأسئلة ينتظر عنها جواباً . وأحس رجل الفكر أن مهمته قد
ازدادت عبثاً ، ومسئوليته قد ثقلت وزناً ، وخشى أن يكون
القلم في يده غير كاف ولا شاف ...

هذا الايمان المزعزع بقوة الفكر قد دفع بعضهم
إلى الانخراط في سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك
إلى رجل عمل ، وانقلب فكره داعية لحزبه كما دفع بعضهم
إلى الحيرة بين الأحزاب المختلفة . والنضال في الميادين
المتعددة ، يتقاذفه القلق وخيبة الأمل ، إلى أن ينتهي به الأمر
إما إلى تأليف حزب خاص يحبس فيه فكره ، وإما إلى
تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة في كافة ميادين السياسة
والحكم ...

في كل هذه الصور ، ما ارتفع منها في المعنى وما انخفض
نرى رجل الفكر قد ضعف وشك واستسلم وترك مكانه
هلعاً . وجرى ينضم تحت راية السلطة العملية . وبذلك هرب
من رسالته الحقيقية . تلك الرسالة التي تعتبر « الفكر » قوة
مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة « العمل » ،

وهذا التعادل بين القوتين يبطل إذا ابتلع أحدهما الآخر
والخوف دائماً على الفكر منذ القدم . لأن العمل أي الحكم

هو الأقوى . وهو الذى اعتاد أن يبتلع الفكر .

فواجب رجل الفكر إذن أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتى حراً مستقلاً ، وأن يصمد به فى وجه كل عدوان لأنه هو الضمان الوحيد على هذه الأرض الآن تجاه انحراف قوة العمل الانحراف الطاغى المدمر .

لكن هل معنى حرية الفكر واستقلاله أن ينفصل وينعزل ، كما يتهم أحياناً ؟ لا . . . استقلال الفكر شىء والانعزال شىء آخر المنعزل لا يتأثر ولا يؤثر ، فهو شىء غير كائن بالنسبة إلى الغير أى المجتمع . والفكر الذى ينعزل عن العمل شأنه شأن الفكر الذى يبتلعه العمل . كلاهما لا وجود له . إنما المقصود باستقلال الفكر هو أن يكون له كيان خاص وإرادة خاصة فى مواجهة العمل ، حتى يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه .

قد تسألنى : ولماذا نفصل الفكر عن العمل ؟ ألا يمكن

أن يندمجا ويتحدا ؟ . .

جوابي أن هذا مستحيل .

لأنهما عندما يندبحان ويتحدان يصبحان شيئاً واحداً

هو : العمل .

وانضرب مثلاً بسيطاً : أنت تفكر في السفر إلى الريف

للنزهة . فإذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك إلى عمل .

وإذا لم تسافر فإن الذي حدث هو التفكير . فإذا اندمج

التفكير واتحد مع العمل ، فمعنى ذلك أنك سافرت أى أصبح

الفكر عملاً . أى أنه لم يعد هناك تفكير وعمل . بل عمل

فقط ... لأن التفكير انتهى ... ابتلع في جوف العمل .

قد تقول : إن كل عمل هو إذن نتيجة تفكير سابق ؟ ...

هذا صحيح .

العمل هو تفكيرٌ تحجر ونفذ ... أو إرادة تجمدت في

وضع نهائي . والفكر هو إرادة حرة سائلة قابلة للتحرك

والتكيف والتطور .

فأنت عندما تفكر في السفر إلى الريف للنزهة تستطيع

أن تغير هذه الإرادة وتحركها وتطورها كيفما شئت . . .
ولكن إذا تحولت هذه الإرادة إلى عمل وتم السفر فإن
الفكرة التي كانت طليقة قد تحجرت بمجرد تنفيذها .

فالعمل إرادة تجمدت وتقيدت والتزمت بوضع خاص .
فالالتزام إذن من صفات العمل .
والحرية من صفات الفكر .
والفكر الذي يلتزم ينقلب إلى عمل .

وهذا بالضبط هو الذي يحدث في الأحزاب السياسية
والاجتماعية . فالبرنامج الحزبي أي المذهب السياسي أو
الاجتماعي هو فكر تقيّد أي التزم به الحزب .

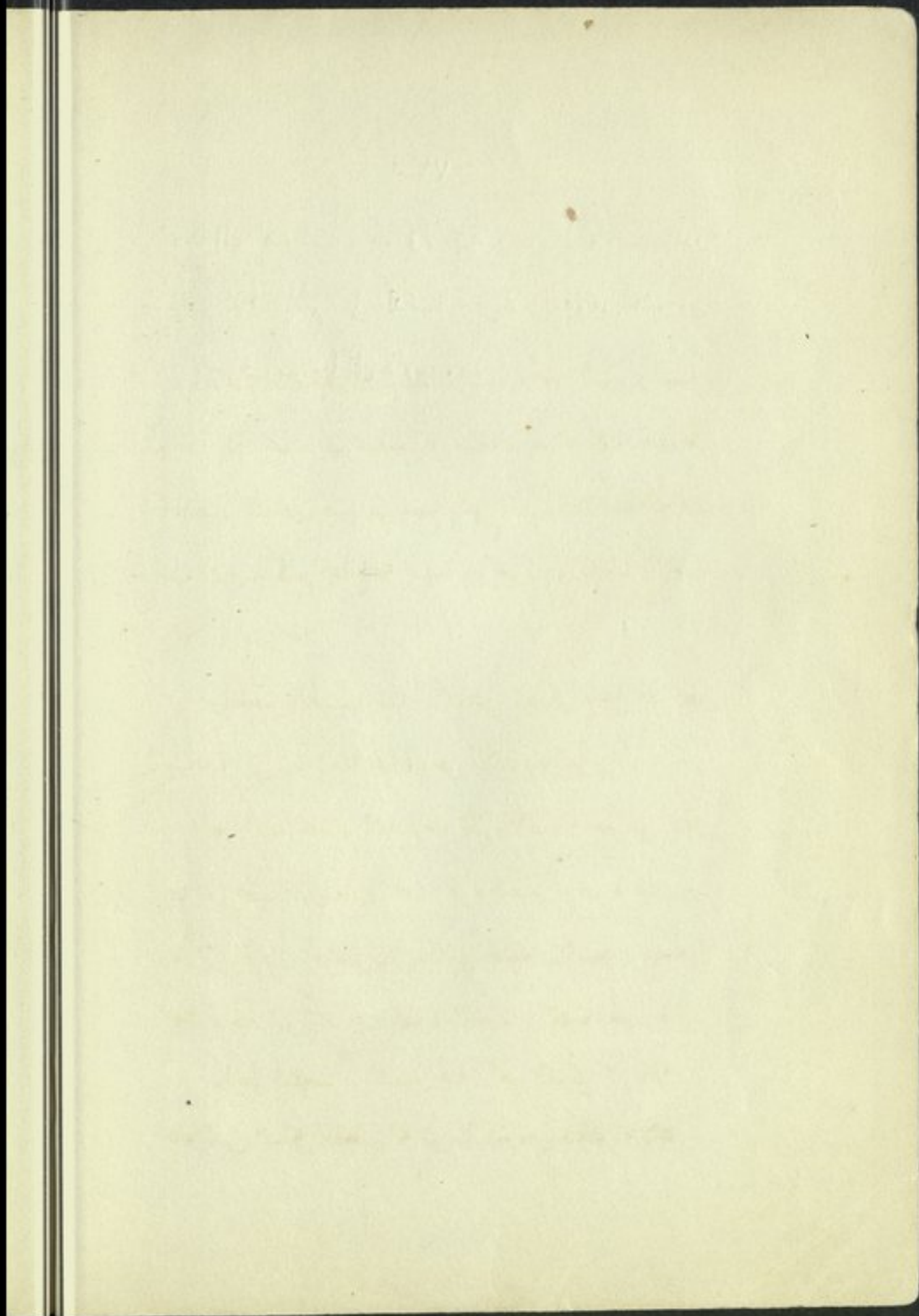
فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه
تقيده والتزامه بتفكير الحزب . وهذا الالتزام يناقض
الحرية التي هي جوهر رسالته الفكرية . لأن التزامه بمذهب
حزبه يحرمه مباشرة سلطة الفكر في المراقبة والمراجعة .
هذه السلطة الحرة التي هي أساس مسؤوليته الحقيقية . وهو

بذلك إيماناً يخضع ويرضخ . لحزبه وينزل راضياً مختاراً عن
وظيفة رجل الفكر ويصبح رجل عمل . وأما أن يصر على
الصمود والاحتفاظ بسلطة وظيفته الفكرية ويناقش أفكار
حزبه ويوجهها ويطورها بمطلق الحرية التي تخولها لمسئولية
رجل الفكر الحر ، وعندئذ سيجد نفسه منفصلاً عن الحزب
ومطروداً أو مضطهداً . . .

على أن ضعف أغلب رجال الفكر في العصر الحاضر ،
وانهيار إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها ، قد ربط الفكر في
عجلة العمل ، وجعل الأقلام في خدمة الحكومات . واختل
بذلك التوازن والتعادل بين القوتين .

ولعل اختلال التعادل بين قوة الفكر وقوة العمل هو
من أسباب الكوارث التي تهدد هذا العصر الحديث . فإن
طغيان قوى العمل في هذا العالم وانحرافها نحو الاستعباد
والاستعمار والسيطرة وإثارة الحروب المدمرة ، دون أن
تجد أمامها قوى روحية أو فكرية معادلة تتكفل

لردها إلى الصواب . هو ولا ريب من أهم مصادر
القلق الذي يخيم على الدنيا ، ويملأ النفوس بشعور
من ينحرف سريعا إلى هاوية . . .



عرفنا اذن قطبي النشاط الانساني وهما: الفكر والعمل.
وقلنا لماذا يجب ان يحتفظ كل منهما . بقوته الذاتية في نظر
المذهب التعادلي حتى يتم بينهما التوازن ، لان هذا التوازن
هو الذي يكبح جماح كل منهما ، ويحول دون طغيانه المفسد
للكيان البشرية .

ولنقصر الحديث الآن على الفكر وعلى الآخر
الناحية التي تهمننا منه هنا : وهي الأدب والفن .

هنا أيضا نجد التعادلية ، تقيم الأدب والفن على أساس
قوتين يجب ان يتعادلا هما : قوة التعبير وقوة التفسير .
فالآثر الأدبي أو الفني لا يكتمل خلقه ولا ينضج بمهمته إلا
إذا تم فيه التوازن بين القوة المعبرة والقوة المفسرة .

ما هو المقصود بالتعبير هنا ؟ أهو الشكل ؟ ... لا ...
إنه ليس الشكل فقط . انه شيء أكثر من ذلك . ولا ضرب

لك مثلاً بسيطاً : فلنفرض أنك سمعت نادرة من النوادر يلقيها
شخصان. أحدهما متكلم عادي، والآخر يحدث لبق موهوب .
هذه النادرة الواحدة تتخذ عندئذ مظهرين مختلفين . فهي في
الحالة الأولى تبدو مجرد حادثة . أما في الحالة الثانية فتبدو هذه
الحادثة نفسها وكأنها لونت واضيئت وتحركت بحياة نابضة ،
لا تدرى من أين أتتها ولا كيف نفخت فيها . تلك هي قوة
التعبير . إنها ليست فقط طريقة الأبراز والأظهار . لأن هذه
الطريقة لا تقوم وحدها بغير الحادثة التي في جوفها . فالتعبير
أذن ليس مجرد الشكل بل هو الشكل والموضوع معاً . هو
الشكل والشيء الذي يتشكل فيه . هو النادرة والأسلوب
الذي رويت به . فالأسلوب وحده بغير النادرة لا يعنى شيئاً في
ذاته ولا يعبر عن شيء . فالتعبير أذن يستوجب وجود
الأسلوب وموضوعه معاً . لأن التعبير عن شيء يحتم وجود
الشيء .

XXX

وقوة التعبير هي أيضاً توازن وتعادل بين قوة

الأسلوب وقوة الموضوع .

فإذا طغى أحدهما على الآخر فأنك تشعر في الحال ان

الوضع غير طبيعي فالأسلوب البارع والموضوع النافع يثيران
XXX في النفس احساسا بالتكلف . وكلفة « التكلف » هنا ليست

بجازا ولا مجرد وصف ادبي . بل هي ذات مدلول يكاد

يكون ماديا . فان الاديب او الفنان الذي يحتفل احتفالا

بالغيا بأبراز موضوع هزيل ، انما يتكلف فعلا أمرا لا لزوم

له . كمن يرتدى ثياب السهرة ليجلس بمفرده في حجرته

يتعشى بكسرة خبز ! . . . فعدم مراعاة مقتضى الحال تكلف .
XXX

والتكلف في الأسلوب قبح كما هو في الحياة . لأن شرط

الجمال الفني ان يثير في النفس احساساً بأنه منبثق من نبع

طبيعي . ومهارة الفنان هي في احداث هذا الشعور

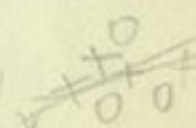
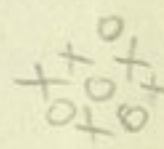
الطبيعي دائماً . فاذا أحس الناس منه ان جماله خارج من نبع

صناعي فقد أخفق .

XXX كذلك الحال إذا طغى الموضوع على الأسلوب .

فالموضوع العظيم في الشكل السقيم يثير في النفس احساسا
بالنحسر . كمن يصوغ اللؤلؤة في خاتم من الصفيح .
اختلال التعادل إذن في الحساليين بين قوة الاسلوب وقوة
الموضوع يحدث الشعور كذلك بأن الوضع غير طبيعي ..
قد تسأل : ما هو الأسلوب في الأدب والفن ؟ وما هو
الموضوع ؟ .. الأسلوب هو طريقتك الخاصة في الظفر
بأعجاب الغير وشعوره وفكره ، ليري ماترى ، ويحس ما
تحس ويفهم ما تفهم .

وهذه الطريقة في الأدب والفن مردها إلى الاستعداد
الفطري والدرس الإكتسابي والاجتهاد الشخصي . فلا
بد من بعض الهبة . ولا بد بعد ذلك من الدرس الطويل
لمعارف الأعلام واساليبهم من الأقدمين والمحدثين ، ولا بد
أخيرا من تصرفك الخاص لتلائم وتوازن بين المحاكاة
والابتكار . فان المحاكاة اذا غلبت عليك فأنت لم تضيف
شيئا إلى من سبقوك ، وإذا أسرفت في الابتكار فقد قطعت



الصلة بينك وبين الآخرين ، وانفصلت حلقتك من سلسلة
التطورات الطبيعية في حياة الأدب أو تاريخ الفن . هكذا فعل
شكسبير وبتهوفن فيما قاما به من محاكاة وابتكار . . .

أما الموضوع في الأدب والفن . . . فهو كل ما تستطيع
أن تثير به اهتمام الناس ، على نحو غير مسف ولا فارغ ولا مبتذل .
وليس للموضوع العظيم أو التافه شروط معينة أو معالم
محددة . فتقديره متروك لعبقرية الأديب أو الفنان . فقد
يتناول بمواهبه السحرية موضوعا نحسبه تافها ، فإذا هو يخلق
منه بقلبه أو ريشته أو مطرقة أو أحياناً شيئاً يثير اهتمام
الناس في جيله وفي جميع الأجيال . فالموضوع لا يتحدد صفته
العظيمة أو التافهة إلا بعد أن يصب فعلاً في الأثر الأدبي أو
الفني . فالوردة أو الآنية أو التفاحة قد تكون موضوعاً
تافهاً أو عظيماً تبعاً للفنان الذي يتناولها . أي تبعاً لدرجة
خبرته وإحساسه وقدرته على النفوذ إلى حقائق الأشياء ، أو
تبعاً للطريقة التي يختارها الفنان . فهو موضوع « هاملت » كان

من الممكن أن يبقى موضوعا تافها عاديا لو عالجها شاعر
عادي . وموضوع « هاملت » نفسه كان يمكن أن يصبح
في خفة موضوع « زوجات وندسور المرحات » لو أن
شكسبير اختار أن يجعل منه مسرحية ضاحكة عابثة بدلا من
تلك المسرحية الفكرية الجليلة . وشكسبير كان يدرك بسليقته
الفنية معنى التعادل بين الأسلوب والموضوع فكان إذا أراد
الجد اتخذ أسلوبه ما يناسب ذلك من العمق . وإذا أراد الهزل
خف أسلوبه فلم يثقله بكنوز فكره . كان إذا أراد للفكر
أن يتألق كالجوهرة كي يضيء . حقائق الكون صاغه في معدن
نفيس من أسلوب عميق . وإذا أراد للنفس أن تضحك لتلهو
ساعة عن تعب الحياة استخدم معدن رقيقا من أسلوب خفيف .
ولو أنه صنع العكس ، وكتب « هاملت » بأسلوب
« زوجات وندسور المرحات » ، لكان كالصائغ الذي لا يستطيع
أن يلائم بين الجوهر والخاتم . والمقصود بالأسلوب هنا
ليس بالطبع اللغة وحدها . بل ما تحمله اللغة في جوفها من

ألوان الصور والأفكار . وأسلوب الفنان بمعنى الطابع واحد بلا شك في سمته العامة . ولكنه يتغير في درجة الدسامة أو الكثافة تبعاً لألوان الطعام الفني التي ينتجها . فطابع « شكسبير » واحد في فنه ، ولكن درجة الدسامة في أسلوبه تختلف باختلاف أنواع مسرحياته كذلك طابع « بهوفن » واحد في موسيقاه ، ولكن درجة الدسامة تختلف في بعض السنفونيات عنها في بعض السوناتات .

وهذه الدسامة والرقّة والعمق والخفة حالات تتعاقب على الفنان ، تعاقب الليل والنهار والخريف والربيع ، دون أن تخضع لترتيب منطقي . فقد يرى البعض أن المنطق يقضي أن يبدأ الفنان حياته بالخفة وينتهي إلى العمق . ولكن هذا المنطق لا يخضع له الفنان . فشكسبير بعد أن بهرنا بعمقه في « هاملت » أضحكنا بخفته في « العبرة بالحواتيم » وبهوفن بعد أن وضع في سانفونيته الخامسة العظيمة روح الفلسفة ، تجده قد مزج سانفونيته الثامنة الرقيقة بنسيم الخفة ، فالفنان لا يسير

دائماً في خط مستقيم . والتطور عنده ليس الانتقال المباشر
من حسن إلى أحسن أو من عميق إلى أعمق . ولكنه كالطبيعة
يتطور من خلال التجربة الذاتية تبعاً لقانون الفعل ورد
الفعل . أى من خلال تجارب متباينة تكشف عن امكانيات
الذات في اتجاهاتها المختلفة . والفعل ورد الفعل هما أداة
التجربة الكاشفة عن الامكانية ، لا عند الإنسان وحده ،
بل عند الكائنات جميعاً . فالشجرة تنقل من الاخضرار في
الربيع إلى الذبول في الخريف ، ثم تعود إلى الاخضرار ،
ثم إلى الذبول ، وهكذا دواليك . . . وقد يبدو في ذلك أنها
تدور حول نفسها ولا تتحرك ، ولكن هذه الحركة حول
نفسها هي في ذاتها دليل الحياة ، وهي القوة الدافعة إلى الأمام
بعد ذلك ، أى إلى التطور من خلال الأجيال الأخرى
المتعاقبة في الأشجار . كذلك الحال في حياة الأرض
والكواكب ، فهي لا تسير في خط مستقيم على نحو مباشر .
بل تدور أولاً حول نفسها ، ثم حول الشمس ، ولكنها مع

ذلك تسير في الفضاء إلى الأمام في إظهار المجموعة الشمسية
بأكملها . كذلك الحال أيضا في الإنسانية . فإن الحضارة فيها
يتقاذفها الفعل ورد الفعل ، فتقع حيناً في الظلام ، ثم تعود
إلى النور ، في حركة ~~حركة~~ الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك
تسير . . . فكلمه التطور إذن لا تعني عند الطبيعة والبشرية
والفكر والفن ، السير إلى الأمام سيرا معترداً مباشراً ،
ولكنه التقدم خلال اختبارات وعقبات الفعل ورد الفعل .
فنحن جميعاً من بشر وأرض وكواكب نسير ونحن ندور ،
ونصل إلى الغد عن طريق دورة الليل والنهار وتعاقب
الظلام والنور . . . فكرة التطور على هذا الوجه تجددها في
مسرحيتي « شهر زاد » .

ومع ذلك ، من يدري حقيقة ما نسميه النور والظلام
والارتفاع والانخفاض والعمق والخفة والدسامة والرقّة ؟ .
لعلها كلها ، على اختلافها ، حركات ضرورية لتكون الحياة
حياة . ولعلها كذلك في محيط الأدب والفن ، هي العناصر

«الضرورة التي يتألف منها» التعبير» .

فلسفة التعبير عند الأديب أو الفنان لا يمكن أن تظهر كل أشعتها وألوانها وأنغامها إذا لعب بها على وتر واحد. مهما يكن هذا الوتر قويا بليغا صافيا نقيا. ماذا كنا نفضل؟ وماذا كان يفضل الفن الإنساني؟ أن يخرج لنا شكسبير كل مسرحياته على نسق «هاملت»؟ أسلوبا وفكرا وارتفاعا؟ أولون لنا كل هذا التلوين في التعبير، فيجد مرة ويهزل أخرى، ويعبس ثم يبسم، ويرتفع ثم يتبسط. ويطلق متأملا ثم يقهقه ضاحكا، ويكون تارة فيلسوفا وتارة مهرجا. وحينما شاعرا، وحينما ساخرا... إن عظمة شكسبير هي في أنه استطاع أن يكون كل ذلك. وقدرته هي في أنه ملك من أوتار التعبير مقدارا أخرج كل الألوان وكل الأنغام وكل الأصوات وكل الضحكات...

ذلك هو «التعبير»...

قوته ليست في مجرد ارتفاعه بل أيضا في اتساعه.

والتعبير من غير شك هو كل شيء في نظر الفن .

ولكن « التعبير » ليس كل شيء في نظر (التعادلية) بقوة

« التعبير » عند « التعادلية » يجب أن تقترن في الأدب والفن

بقوة « التفسير »

ما هو « التفسير » ؟ ..

هو الضوء الذي يلقى على موضع الإنسان في الكون

والمجتمع .

فالأدب أو الفن التعادلي يجب أن تتوازن فيه القوة

المعبرة والقوة المفسرة .

فالقوة المعبرة وحدها لا تكفي ، لأنها قد تكشف عن

بجرد وجودها . ولكنها قد لا تشع ضوءا يكشف عن وجود

غيرها . القوة المعبرة قد تكون جميلة في ذاتها كاللؤلؤة .

ولكنها مثلها حيصة جمالها ، لا تضيء غيرها .. إنها ليست

كاللماسة المتألقة التي تشع في الظلام أضواءاً تكشف عن

وجود أشياء أخرى .

والأديب أو الفنان قد يعبر عن الحياة ولكنه لا يفسرها .
أى أنه قد يجيد وصفها بالحالة التى هى عليها ، أو يحملها بوشى
مصطنع ، أو يقبحها بتشويه مقصود ، وهو فى كل هذه
الأحوال يريد اللهو بأداة التعبير تارة ، أو استخدامها للدعاية
تارة أخرى .

ولكن الوقوف عند حدود التعبير ليس كل مهمة الأديب
أو الفنان المتعادل . لأن التعبير وحده على علو قيمته الأدبية
والفنية ، قد يجبس أهداف الأدب والفن فى نطاق التهذيب
الروحي والامتناع النفسى ومهما يكن من نبيل هذه الأهداف
وكفايتها ، فإن المطلوب من الأديب أو الفنان ، خصوصاً فى
العصر الحديث ، أن تمتد رسالته إلى أبعد من هذا النطاق .
المطلوب منه هو أن يهذب ويمتّع ثم يلقى فى نفس الوقت
ضوءاً كاشفاً موجهاً فى طريق الإنسانية .

فالأدب أو الفن يجب أن يكون معبراً ومفسراً . . أى
أن تتعادل قوى التعبير وقوى التفسير فى الأثر الأدبى أو

الفنى . فاذا طغت قوة التعبير طغيانا بالغيا فان قسطا هاما من رسالة الاديب او الفنان لم يبلغ للناس . وإذا طغت قوة التفسير حتى كادت تتلاشى بجوانبها قوة التعبير ، فان صفة الادب او الفن ذاتها تهدد بالانهيار . اذ لا بد لوجود أى أدب أو فن من ضمان قوة التعبير قبل كل شئ . فمروية التعبير الأدبي أو الفنى ، اى بالاختصار ، الاديب أو الفنان يجب أن يوجد أولا بأداة أسلوبه الرائعة البارعة القوية قبل النظر فى أمر الرسالة التى سيجعلها .

التعبير يشمل الاسلوب والموضوع اى الشكل والمضمون .
وبه يمكن ان يتم الاثر الادبى أو الفنى فى ذاته .
أما التفسير فهو الرسالة التى يحملها الاثر الادبى أو الفنى
بعدئذ للبشرية ، ليقول فيها كلمته عن وضع الانسان فى
أكونه وفى مجتمعه .

وليس كل أثر أدبى أو فنى يحمل تفسيراً أو رسالة فى هذا الشأن . فكثير من الآثار رسالته هى فى مجرد روعة تعبيره .

الادب رسالة
فنية

XXX

فالبحتري مثلاً هو تعبير . في حين ان ابا العلاء تعبير و تفسير
معاً . لأن الكثير من شعره يحمل الينا رأيه في وضع الانسان
ومصيره . وشكسبير هو في شعره الغزلى تعبير ، أما في
مسرحياته مثل « هاملت » ، وغيرها فهو تعبير و تفسير معاً .
وبيتهوفن في سوناتا ضوء القمر هو تعبير . بينما هو في
السنفونية الثالثة يحمل الينا كلمته في الانسان والبطولة ، وفي
السنفونية الخامسة ينقل الينا قوله في الانسان والقدر .
وكذلك في السنفونية التاسعة ، وفي كثير من كونسيرتاته يريد
ان يقول لنا شيئاً اكثر من مجرد اللحن الجميل .

والتعبير وحده قد يؤدي إلى « الفن للفن » ، اذا أسرف
في الهيام بجمال الشكل والتأنق في المبنى على حساب المعنى
والمضمون .

والتعبير وحده كذلك قد يؤدي الى « الفن الملتزم » ، اذا
أسرف في التقيد بمعنى خاص ومضمون معين ليس الى
التحرر والاستقلال عنهما من سبيل .

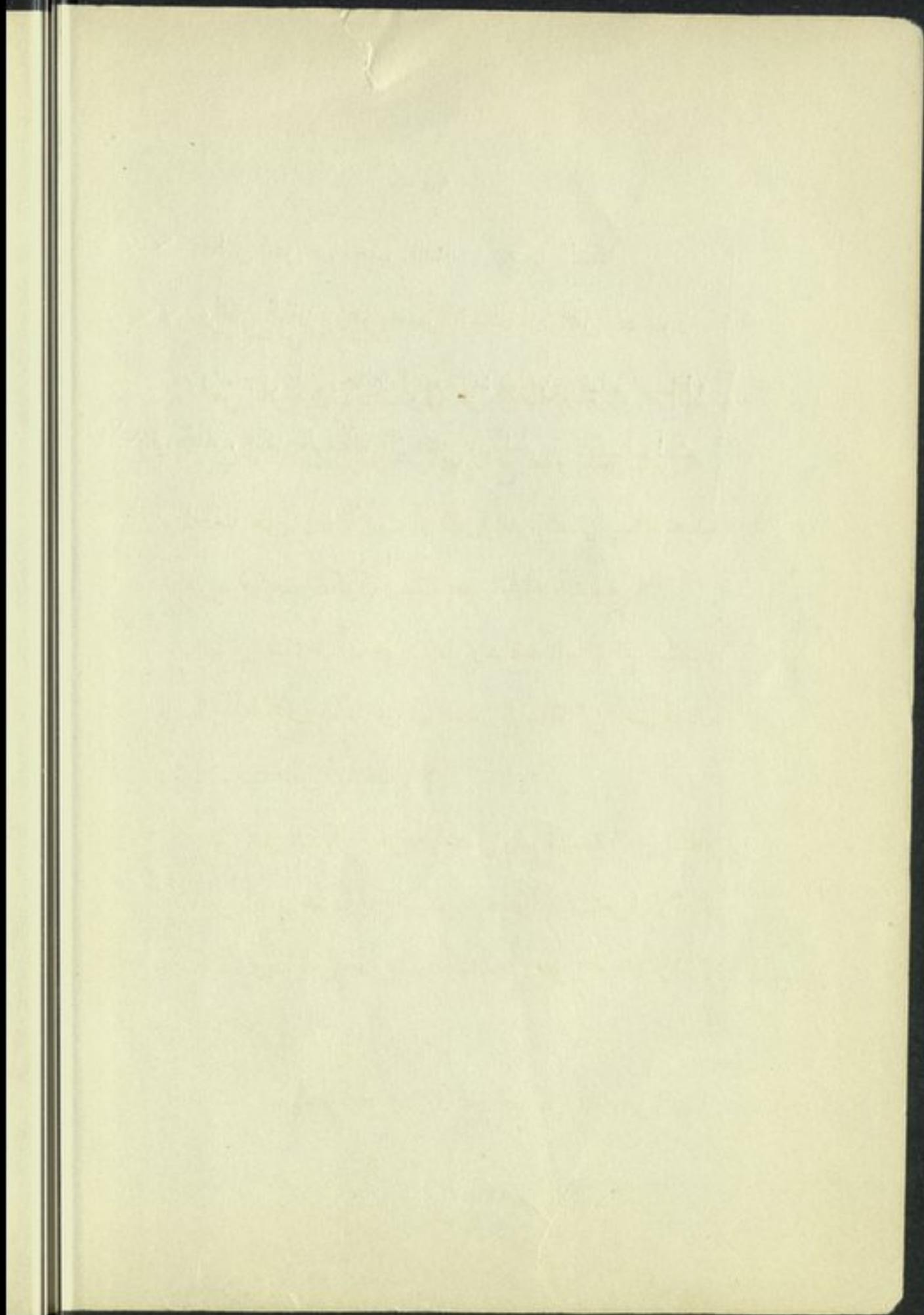
فالفن للفن هو حبس الفنان في هيكل الشكل. XXX

والفن الملتزم هو حبس الفنان في سجن المضمون. XXX

والسجن في الحالين يمنع الفنان من تبليغ رسالته

الكاملة. تلك الرسالة التي تنبع من الحرية دائما، لتبشر XXX

بالحرية.



قد تسألني بعد ذلك :

* هل الحرية في الأدب أو في الفن مناقضة للالتزام ؟ . أليس

للأديب أو الفنان أن يلتزم برأى يدافع عنه ويبلغه للناس ؟ .

XXXX وما دمنا نقول إن للأدب أو الفن المعبر المفسر رسالة يحملها
للإنسانية فكيف تكون رسالة بغير التزام بالتبليغ ؟

VXX ما من شك في أن مجرد حمل رسالة معناه التزام بتبليغها.
ولكن الخلاف دائما هو في مصدر الرسالة التي يحق للفنان
أو الأديب الحر أن يحملها ؟

هل يحق للفكر الحر أن يحمل رسالة تصدر من سلطة

« العمل » ؟ في هذه الحالة سيكون مجرد آلة مسخرة ، لا أداة

مفكرة . وإذا آمن حقا بهذه الرسالة هل يجوز له الالتزام ؟

في رأيي نعم .

ولكن من جهة أخرى : الإيمان الطويل الأمد هو بالنسبة

إلى الفكر عاهة . لأن الفكر السليم هو الفكر المتحرك ..
وحركة الفكر معناها حرية شك وحرية الشك معناها
حرية المراجعة للقيم والأوضاع .

xxx فإلى أى مدى إذن يباح للمفكر أن يراجع الرسالة التى
التزم بحملها ؟ ..

فإذا قيل له : لا نستطيع أن تراجع أو تناقش أو نتحلل
مما التزم به ، فمضى ذلك هو إلغاء الفكر وتحويله إلى
إيمان .

فنحن إذن أمام مشكلة .

لأن الالتزام الطويل الأمد برأى معين يؤدى إلى
الآيمان . والآيمان يؤدى إلى تعطيل الفكر . والفكر يجب
أن يتحرك ليوجد المفكر . والمفكر إذا فكر ناقش الالتزام
وقد تؤدى مناقشة الالتزام إلى التحلل منه ...

لذلك عندما ينبع رأى المزم من سلطة العمل أى سلطة
حاكمة فإن مناقشة الالتزام لا تباح ولا تشجع ، فيصبح

الرأى شبه إيمان .

ولكن الإيمان فى الرسالات السماوية مقبول ، لأن
الامر كله متعلق بموضوع علوى بعيد عن متناول الفكر .
فنحن عندما نؤمن بفكرة الله قد رضينا مختارين أن نلتزم
بتعطيل التفكير فى ماهيته وفى حكمه ، واكتفينا بالإيمان ،
اعلمنا أن فكرنا البشرى لا يصاح أداة لأدراك قوانين من
هو فوق البشر .

ولكن السلطة الحاكمة أو السلطة الممثلة للعمل فى دولة
من الدول ، لماذا تعطل أمامها فكرنا ونلتزم برأيها مؤمنين
بها الإيمان الذى لا يقبل التحيص ولا المناقشة
ولا المراجعة ؟ . فالالتزام الدائم إذن برأى صادر من
سلطة بشرية هو نوع من الإيمان لا يجب أن يفرضه بشر على
بشر .

أما الالتزام المباح فى نظرى للفكر أو الأديب أو
الفنان فهو ذلك الذى لا يعطل تفكيره الحر ، ولا يمنعه من

أن يناقشه ويراجعه ويعدله في أى وقت شاء ، سواء كان
هذا الالتزام صادرا عن رسالة خاصة أو رسالة عامة للدولة
كلها أو لحزب فيها.

ولقد سبق لى أن عرضت موقفي تجاه الالتزام فى الأدب.
فقلت فى كتابى « فن الأدب » : « إن الأديب يجب أن يكون
حرا . لأن الأديب . إذا باع رأيه أوقيد وجدانه ذهبت عنه
فى الحال صفة الأديب . فالحرية هى نبع الفن . وبغير الحرية
لا يكون أدب ولا فن . . لأن الذى يقول لفنان أو أديب :
التزم بكذا أو بكذا فقد قتله . إنما التزم الأديب أو الفنان
شئ ينبع حرا من أعماق نفسه . فإن لم ينبع الالتزام حرا
من قلبه ويثته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى
الوجود . يجب أن يكون الالتزام جزءا من كيان الأديب
أو الفنان . [فالالتزام المثمر للفنان فى رأى هو الالتزام
الذى ينبع من طبيعته . وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية .
قد تسألنى عن مدى انطباق هذا الرأى على ما كتبت ؟

xxx

حرية
والتزام

xxx

xxx

فأقول لك ارجع كذلك إلى كتابي وفن الأدب، فقد ذكرت فيه :
أن الموقف مختلف كل الاختلاف فيما يختص بانتاجي أناعلي
وجه خاص، فعلى الرغم من مناداتي بالحرية فإن عملي في
أكثر كتيبي هو من الأدب الملتزم . . . اني منذ أمسكت
بالقلم ما حاولت قط أن أنشيء لنفسي أسلوبا جميلا يتميز
بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوى القارىء بحلاوة
الجرس والرنين . . . هذا الفن للفن في الأسلوب ما خطر لي
أن أمارسه ، ولكني أردت أن اتخذ من الأسلوب خادما
لأهداف أخرى غير مجرد الامتناع . . . هذه الأهداف كما
ظهرت واضحة للناس كانت قومية وشعبية وإصلاحية في
« عودة الروح » ، وفي « عصفور من الشرق » ، وفي « يوميات
نائب في الأرياف » ، وفي « مسرح المجتمع » ، الخ . . . وكانت
مذهبية متصلة بمصير الإنسان . . . في « أهل الكهف » ، وفي
« شهر زاد » ، وفي « سليمان الحكيم » ، وفي « بجماليون » ، وفي
« الملك أوديب » ، الخ . . . فهذه القصص لم تكتب لأظهار

ملاحظات
XXX

XXX

جمال الأسطورة ، كما كتبت «مجنون ليلى» ، لشوقي ، فأظهرت
جمال الشعر والعواطف والشعور ، وأبرزت روعة الفن
للفن نفسه ، إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة
لهدف آخر ، لا غاية في ذاتها . . . قضية خاصة بالإنسان
ومصيره ؟ . . .

فأنا في الحقيقة لم أكتب لأعبر فقط بل لأفسر . ولقد
كان من الممكن أن تكون «عودة الروح» ، مثلاً مجرد قصة
تصور الحياة في حى السيدة زينب بين أسرة متواضعة ،
وتخلق أشخاصاً نابضين بالحياة يعيشون في صميم بيئتهم وفي
هذا الكفاية من حيث الفن . لأن خلق الحياة هو عمل في
الفن كاف . ولكنني ألزمت نفسي بتفسير خاص للروح المصرية
فلم تنته مهمة القصة عند حد التعبير والتصوير لبيئة وأشخاص ،
بل اتخذت موقفاً ينم عن رأى معين وهذا الرأى استخلصه
النقاد الأجانب من زوايا مختلفة وإن كان واحداً في جوهره
فالناقد «جان ديستيو» قال :

« إننا نلمس مؤلفاً من تلك المؤلفات التي لو وجدت
عندنا لنعتها « مورييس بريس » بقصة النشاط القومي وليس
لمدلولها غير تفسير واحد : هو أن الروح العائدة إنما هي
روح فَلاحِي مصر العريقة في القدم . . . وقال الكاتب
اليساري النزعة « مارسيل ما رتيانية » : إنه لمن الظاهر
فيه فضلاً عن ذلك وجود بعض عناصر أدب « الطبقات
الفقيرة » أو على الأقل أدب شعبي لاشك فيه . . . وقالت
الكاتبة « تيريز ميربان » : « إن عودة الروح ليس مؤلفاً
وليد الخيال ، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب في
حالة تطور تطور سريع . . . »

فعودة الروح ليست إذن قصة تصور حياة ، وليكنها بعد
ذلك قصة تفسير حياة . وتفسير حياة شعب معناه اتخاذ رأي
معين تجاه هذا الشعب . . . ولقد كانت لفكرة الرواسب
القديمة التي تراكت على مدى الحضارات المختلفة في أعماق
الشعب المصري فكونت منه قدرة خفية تسعده في أزماته

وترد إليه روحه كلما استهدف لخطر النلاشى والانهيار . . .
هذه الفكرة التي اعتنقتها القصة كان لها أثر، كما لاحظ بعض
نقادنا، في مجال العمل، أي السياسة. هذا التفسير أيضا
أي الرأي والموقف تجاه الحكم والمحكومين قد ظهر
في «يوميات نائب في الأرياف»، فهي ليست مجرد تصوير
لحياة الفلاح، ولكنها كما قالت صحيفة «سبكاتور»
الإنجليزية: إن في هذا الكتاب عن مهزلة الفساد
الاجتماعي أكثر من مجرد استنكار، وكما حدث مع
كتاب الروس في القرن التاسع عشر وكما حدث مع كاتبنا
«ديكنز»، يشعر الكاتب المصري أن مجرد العطف
لا يكفي . . . الخ

من هذه التعليقات التي أذكرها، تستطيع أن تجد جوابا
عن سؤالك، وتعرف اتجاهي من كتبي نفسها كما طلبت.
وهنا أذكر أيضا ملاحظة لأحدهم في تفسير مسرحياتي
الذهنية بأنها تكشف عن عجز الإنسان تجاه مصيره، فقد

رأى أن هذا الوضع للأنسان سبق أن أبرزه سوفوكل في

« أوديب » ابرازا صادقا ، كما أظهره شيكسبير في « روميو

وجوليت » على أروع صورة . فالآلهة قد ارادوا عامدين

ان يحطموا أوديب . والقدر تدخل تدخل مباشر على شكل

مصادفات متلاحقة فرقت بين روميو وجوليت . ولكن الذى

تم عندى فى رأيه هو أنه لم يحدث أى تدخل مباشر ، لا فى

هيئة ارادة علوية متعمدة . ولا فى صورة مصادفات طارئة ،

بل هى قوانين خفية تسير فى اتجاهها العادى ، فتحد من

إرادة الانسان . فقانون الزمن فى « أهل الكهف » يعمل

عمله المعتاد فيسير قدما ولا يغير اتجاهه ، ولا يعود إلى الوراء .

ثلاثمائة عام ليجمع بين مشلينا وبريسكا . فالقوة التى فرقت بين

مشلينا وبريسكا ليست هى القوة القدرية المعاكسة التى فرقت

بين روميو وجوليت ، فجعلت المصادفة فى أول الأمر تدفع

روميو إلى قتل ابن عم جوليت ، ثم جعلت المصادفة فى آخر

الأمر تحدث طاعونا يعطل الرسول الحامل إلى روميو

رسالة بما يدبر ، مما أدى الى المأساة ... كلا ... ان المأساة
المفرقة بين الحبيبين في «أهل الكهف» هي قوة طبيعية ...
هي قوة الزمن أى المجتمع الجديد ... فبريسكا أيقنت ان
من المستحيل ان يقبل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل
عاش منذ ثلثمائة عام ... قوة المجتمع هذه ظهرت كذلك عندى
في مسرحية «الملك أوديب» . فهو عند ما قيل له انه متزوج
بأمه لم يتصور ذلك ، لانه لم يرها الا امرأة في تمام نضجها
فأراد أن يصمد كما أراد مشيلينا ان يصمد ، وان يتحدى وان
يبقى على أسرته ، ولكن جو كاستا — شأنها شأن بريسكا —
لم تستطع تحمل هذا الحاضر ... إن قوانين المجتمع المتأصلة
في أعماق كيائها قد حكمت عليها بالفناء فشنت نفسها ...
إرادة الإنسان عندى إذن حرة في حدود خاصة وهذه
الحدود هي قوانين ، وليست إرادات طاغية ، هي نواميس ،
وليست مصادفات طارئة ... فالإنسان عندى عاجز حقا
إمام مصيره في النهاية ... هذا المصير الذى تدفع اليه قوانين

سرد
تاريخ

[ونواميس يحاول دائما ان يتخطاها أو يحطمها... نعم...
ان من يمعن النظر في هذه المسرحيات يجد مشلين يحاول ذلك
ويمكنك يكافح ليقنع بريسكا بتجاهل عقبة الزمن...
ونجد شهر يار يحاول تحدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته...
وتجد سليمان يحاول تحدى قانون الحب واقتحام قلب بلقيس...
وأوديب اراد تحدى المجتمع والبقاء مع أمه زوجا. وبجماليون
اراد تحدى الآلهة وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما
نفخوه هم فيه من روحهم... جميع هؤلاء الأشخاص لم
يستسلموا لمصيرهم الا بعد التحدى والنضال والكفاح. لقد
ارغموا ارغاما على التسليم فى آخر الامر. لأن القوى
المسيطرة ليست من صنع البشر. ولكن يبقى الكفاح - ولو
ضد المستحيل - وهو وحده واجب البشر به. - والاعلم
منه... ديدن كليمس

1890

Jan 1st

Feb 1st

Mar 1st

Apr 1st

May 1st

Jun 1st

Jul 1st

Aug 1st

Sep 1st

Oct 1st

Nov 1st

Dec 1st

التفسير إذن في الأثر الأدبي أو الفني هو منطوق المسئولية.

لأنه هو الرأي ، وهو الموقف . ومادام هناك رأي ، فهناك

التزام به ، ومسئولية عنه .

أما التعبير فهو حر طليق كالحياة نفسها ، مالم يقيد نفسه

كما قلنا بالمغالاة في الشكل فينحرف إلى الفن للفن ، أو يحبس

نفسه في مضمون دائم معين بالذات فيصبح شأنه شأن الفن

الملتزم .

وهنا قد يخطر على بالك سؤال :

ما هو الفرق بين الإلتزام في التعبير والالتزام في التفسير ؟

مادام كل منهما يمكن أن يؤدي إلى الفن الملتزم ؟

جوابي : هو أن الإلتزام في التعبير قد لا يعكس رأياً

خاصاً ، فالمواقف هنا هو مجرد الارتباط بموضوع بالذات .

كأن يعكف الأديب أو الفنان على تصوير طبقة معينة من

طبقات الأمة لا يحيد عنها . ولكنك لا تلمس من خلال
هذا التصوير والخلق في هذه البيئة المعينة أى اتجاه شخصي .
أو رأى خاص . . . أعنى أى تفسير بعينه .

في حين أن الالتزام في التفسير لا يتقيد بالموضوع .
ولكنه يتقيد بالرأى . فالأديب أو الفنان هنا يعالج الموضوعات
المختلفة ويصور الطبقات المتباينة ، ولكنك تخرج من أعماله
كلها بتفسير خاص أى برأى وبموقف وباتجاه . . .

وكما قلنا : حيث يوجد الرأى توجد المسؤولية . . .
ولكن المسؤولية ، كما عرفنا ، لا تنبع إلا من الحرية . لأن
المقيد غير مسئول .

فكيف نوفق إذن بين الالتزام والمسؤولية والحرية ؟ ..
لا يمكن التوفيق إطلاقا إلا إذا كان الرأى رأيك أنت ،
والالتزام به نابعا من طبيعتك أنت ، كما سبق أن قلت لك ..
أى أن الرأى والالتزام يجب أن يكونا صادرين من صميم
حريتك ، لتكون مسئولا عنها مسئوليتك عن حريتك .

مستولا أمام من ؟ ... أمام نفسك وحدها التي منها خرج
الرأى حرا ...

وها هنا كل الجوهر في كيان المفكر الحر .
الرأى رأيه ، ومستوليته أمام نفسه .

فإذا كان الرأى صادرا من سلطة العمل أى سلطة الحكم ؟
وكانت المسئولية أمام هذه السلطة أيضا ؟ فما هو القول ؟
لا قول سوى أن « الفكر » بمسئوليته يكون عندئذ قد
تحى جانبا ، ليقوم « العمل » وحده بالآعباء والتبعات . ولقد
قلتها فيما سبق : أن أزمة العالم اليوم مردها أن سلطة العمل
قد اغتصبت المسئولية الكاملة في إدارة دفة الدنيا وتوجيه
مصائر البشر .

ما من أحد اليوم يستطيع الزعم بأن « الفكر الحر » هو
الذى يوجه عالمنا الحاضر . لقد اضطهد علماء الذرة الذين
رفضوا الرضوخ لأوامر السلطات الحاكمة ، رغبة منهم في
انقاذ البشرية ، ونزولا على حكم مسئولياتهم أمام أنفسهم .

وضمائهم .

أما بقية العلماء والمفكرين فقد أذعنوا وسايروا وتعاونوا ..
في كل دول الأرض نجد سلطة العمل متفاهمة متحدة في
وضع واحد : هو إخضاع الفكر لخدمة أغراضها .
هذا الاتحاد والتفاهم من جانب العمل ، يقابله اختلاف
وانشقاق في جانب « الفكر » ، ...

ماذا لو استطاع « الفكر » ، في كل أمم العالم أن يتحد
ويتفاهم ويوحد سلطانه ، ويقرر كلمته الحرة في وضع البشرية ،
ويحمل مسئوليته أمام نفسه وحدها ، ويرفض في وقت واحد ،
في كل رقعة من الدنيا ، أن يتعاون مع سلطات العمل فيما
يعتقد ويقرر أنه ضار بمصلحة الإنسان والإنسانية ؟ ...
ماذا لو وقف الفكر كله في الدنيا كلها هذا الموقف
الموحد ؟ أترك التقدير لك ...

من هنا جاء اصرارى على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها
واستقلالها تجاه سلطة العمل، وقد طبقت هذا المبدأ حتى الآن
على شخصى تطبيقاً صارماً. فابتعدت عن محيط السياسة
العملية، ورفضت الانضمام الى الأحزاب السياسية واعتبرت
المفكر كالأهلب، مسووحه هى حريته. وتحدثت عن البرج
العاجى والاعتصام به. ولم أقصد بذلك طبعاً العزلة عن الحياة
والانفصال عن المجتمع: كما فهم البعض خطأ. ولكنى قصدت عزل
رجل الفكر عن السياسة الحزبية، حتى لا يستخدم آلة مسخرة
فى ايدى رجالها، فيفقد بذلك حرية النظر الحر الى الأشياء.
هذا الإصرار منى، على الرغم من الظروف المواتية
التي عرضت لى مراراً للانخراط فى سلك حزب.
والوصول به الى السلطان العملى، قد بلغ أحياناً حد الغلو
والإغراق. ولكن الفكرة التي استولت على رأسى، ولم

نزل ، هي ان مسئولية المفكر الحر الحقيقية انما هي امام نفسه وحدها لا امام حزب من الاحزاب ولا حاكم من الحكام . وان المفكر الذى يترك مكانه لينضوى تحت لواء سلطة العمل الممثلة فى حزب أو حكم هو مفكر هارب من رسالته . وان هذا الهروب إلى معسكر السياسة والحاكين هو الذى جرد المفكر من سلطانه ، وجعل منه تابعا لامتبوعا .

ولم يخطر فى بالى قط ان اعزل الفكر عن اى نشاط سياسى أو اجتماعى . فالعزلة التى دعوت اليها هي العزلة عن

السياسيين لاحسن السياسة ، وعن الاحزاب لا عن المجتمع .

فالفكر فى كل ألوانه من ادب وقصص وفن يجب فى نظرى

ان يعنى بكل ما يجرى فى مجتمعه وعصره من شئون السياسة

والاجتماع . لأنه ما دام يعنى بالبشرية ، وما دامت البشرية

متصلة بالسياسة والمجتمع ؛ فلا بد للفكر أو الاديب أو الفنان

ان يعيش عصره كله ومجتمعه كله بما فيهما من شئون سياسية

واجتماعية . لأن تلك هي البشرية . وفى كتبى : تحت شمس

الفكر ، و « شجرة الحكم و تأملات في السياسة »
و « براكسا أو مشكلة الحكم ، الخ ... خلاصة وافية
لموقف من السياسة والمجتمع .

قال احدهم ان موقفى لم يتخذ وضعاً عملياً .

وهذا صحيح . لأن هذا بالذات هو مذهبي . فذهبي
يرفض رفضاً قاطعاً ان يغير الفكر صفته ، وان ينقلب عملاً .
ولأننى حتى الآن لم افقد الأمل فى قوة الفكر . باعتباره
سلطة مستقلة لها مقوماتها الخاصة وصفتها الذاتية . وعندما
افقد هذا الأمل ، سألتس فى الحال المعونة صاغراً لدى
« العمل » . وعندئذ اسير فى اتجاه بعض المذاهب الأدبية
والفنية التى خضعت للعمل أو اندججت فيه ، فأصبح من العسير
عليها أن تنفض عنها بعض غبار الدعاية أو التسخير الذى لحق
بها بالباطل أو بالحق ...

قد تسألنى إلى أى مدى يستطيع الفكر المستقل ان يؤثر

فى « العمل » ؟ ..

ما من شك عندى فى أن الفكر المستقل يؤثر إلى مدى بعيد فى « العمل » . . . أبعد بكثير من أثر الفكر المندمج أو الخاضع للعمل .

لأن الفكر المندمج أو الخاضع يصبح حزبا أو تابعا فى محيط الحكم السياسى ، وبذلك يفقد هيئته وكميته لا فى نظر الأحزاب الأخرى ، بل فى نظر حزبه نفسه أحيانا . . فلا يسمح له بالتوجيه أو بالإيحاء ، بل يتلقى تعليمات رؤساء العمل للسير بمقتضاها . . .

قد تسألنى بعد ذلك : هل كان لموقفى المستقل أثر فى « العمل » ؟ . .

الحقيقة انى لا أستطيع أن أجيب بنفسى إجابة قاطعة فمن العسير على أن أعرف أثر كتاباتى فى الغير على وجه عام . ولا اعتقد ان كتابا مثل « يوميات نائب فى الأرياف » كان له أثر مباشر فى إصلاح بعض ما أبرزه من عيوب الحكم والقضاء والإدارة فى الريف . وإن كنت أعلم أن

كثيراً من رجال الدولة قد طالعوه .

على أن رأيي دائماً في رجال الفكر والأدب والفن أنهم
ليسوا مطالبين بالإصلاح المباشر إن مهمتهم الحقيقية هي أن
يعدوا ويهيئوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالإصلاح
لقد قلتها يوماً في كتاب لي : إن الأديب أو الفنان ليس
مصلحاً ، ولكنه مصلح المصلح ،

غير أني استطعت رغم ذلك أن أقول أني رأيت مرة أثراً
مباشراً لكتابتي في أمر من أمور المجتمع . فقد كتبت ذات
يوم اقترح انشاء وزارة لشئون المجتمع كما اقترحت اسماء
وزراء بالذات من بين الموظفين الأكفاء ، فما انقضى شهران
حتى تقلد الحكم رجل من رجال الدولة فنفذ الاقتراح
وانشأ وزارة اطلق عليها اسم وزارة الشؤون الاجتماعية ،
واختار عين الموظفين الذين اقترحهم ، وزراء في حكومته .
كيف تم هذا ؟ لا ريب أن استقلال الفكرى يسر كل
ذلك . فلو أني كنت كاتباً حزياً لما أوحيت بهذه الثقة

ولكانت اسمااء الذين اقترحهم محل ظنون ، ولكان الاقتراح
كله موضوع سخرية متحدية وريية مستعلية . ان « الفكر »
المستقل الحر يستطيع دائما ان يكون سلطة هامة معادلة
وموازنة لسلطة « العمل » . وفي هذه الحالة يكون في مقدور
« الفكر » ان يصبح قوة دافعة وموجهة ومطورة لسلطان
« العمل » .

هذا مذهبي .

قلت لك إن التعبير هو موهبة الخلق والابداع .
وإن التفسير هو الضوء الكاشف لوضع الإنسان .
ولأوضح مرة أخرى هذا التعريف :

إذا كنت تعبر عن الحياة ولا تفسرها ، فأنت أديب
أو فنان .

وإذا كنت تملك تفسيراً للحياة ، ولا تملك موهبة التعبير
عنها ، فأنت أى شيء إلا الأديب أو الفنان .
وإذا كنت معبراً ومفسراً للحياة ، فأنت أديب أو فنان
ذو رأى وموقف واتجاه ، ومن ثم فأنت مؤثراً بطريق ما فى
التطوير والتوجيه .

هناك مع ذلك حالات يستطيع فيها التعبير وحده ، إذا
كان بالغ القوة ، أن يحدث أثراً موحها مطوراً بطريق غير
مباشراً .

كما أن هناك ، كما سبق أن أشرت ، حالات يفسد فيها التفسير
روعة التعبير ، إذا خرج عن حدود التناسق الفني ، وعندئذ
يبطل تأثيرهما معاً ، لأن الأثر الأدبي أو الفني يبدو عندئذ
مفتعلاً افتعلاً مضيعاً لجوهر وجوده وهو الصدق .

والمقصود بالصدق هنا هو الصدق الفني ، أى الشعور
المنبعث فى نفوسنا بأن الأثر الأدبي أو الفني قد ولد ولادة
طبيعية ، ولا يمكن بالطبع أن تكون الولادة طبيعية إلا إذا
خرج الأثر الأدبي أو الفني متناسق الأجزاء متناسب الأعضاء .
فإذا طغى فيه جزء على جزء فإنه يعتبر مسخاً مشوهاً ، حتى
وإن كان جميل الوجه .

من أجل هذا كله كان الشرط الضروري لحياة التعبير
والتفسير معاً هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى : التعادل .

الرساله

XXXX

قلت لك أيضاً إن سلطان الفكر يجب أن ينهض معادلاً
لسلطان العمل فما هو المقصود بالفكر هنا؟ هل هو العقل وحده؟

هذه نقطة تحتاج كذلك إلى توضيح . فالفكر المعادل والموازن
للعمل إنما يشمل القوى العقلية والقوى الروحية معاً .

خصوصاً في نطاق الأدب والفن . وهذه مسألة تختلف فيها
المذاهب الأدبية والفنية المعاصرة . فأكثرها يطرح القوى
الروحية أو الدين ، ولا يستبقى غير القوى العقلية يستمد منها
وحدها كل عناصر نشاطه من ذلك وجودية سارتر ، والواقعية
الاشتراكية ، وغيرهما من المذاهب التي يصفونها بالمادية
لأنها تقصر قوى الفكر فيها على العقل بمنطقه وحده .

أما التعادلة فتطلق ، الفكر ، على قوتين هما العقل
والقلب ، أعني المنطق ، و الإيمان ، باعتبارهما منبعين
للمعرفة البشرية . لأن الحيوان الذي لا يعقل ولا يؤمن

لا يملك غير منبع واحد للمعرفة هو الغريزة ، والحيوان
لا يؤمن لأنه ، كما أشرت ، لا يدرك معنى الأرقى .

فالإنسان : الكائن الوحيد الذى يدرك ويعنى الأرقى ، إنما
يتوصل إلى هذا الإدراك والوعى بوسيلتين : المنطق المنبعث
من العقل ، والأيان المنبعث من القلب . الأول عكازه الدليل
البين والآخر عكازه الشعور الخفى .

وما دامت هاتان الوسيلتان قد منحتا للإنسان ، فلا بد
أذن من بقاءهما وتقويتهما وإنمائهما والبلوغ بهما أقصى حدود
القدرة ، كل منهما فى مجاله .

وقد سبق أن أشرت كذلك إلى أن الخلط بينهما عبث كما أن
إخضاع كل منهما لمقومات غيره عبث أيضاً . فالعقل يجب
أن يشك دائماً ويطلب بالدليل . والقلب يجب أن يؤمن
دائماً ويعنى من الدليل . كل منهما يجب أن يجرى فى فلك
مستقل ، وفى مجال نشاط مختلف ، فالقضاء على أحدهما
لمصلحة الآخر تعطيل لإحدى ملكات البشرية . وتدخل

أحدهما لخلق حرية الآخر عرقلة أيضاً لسير الإنسانية .
والتعاضدية ترمى إلى بقاء كل منهما موازنا للآخر ، كما
يتوازن كوكبان يدور كل منهما حول نفسه ، ثم يسيران بعد
ذلك معاً إلى الأمام في عين المجرى . . .

ولقد سبق أن بينت في كتابي « تحت شمس الفسك » ، في
فصل بعنوان « منطقة الإيمان » ، كيف أن العقل والإيمان يمكن
أن يعيشا جنباً إلى جنب في كيان الإنسان ، دون أن يطغى
أحدهما على الآخر ، أو يؤثر في أسلوبه وهدفه .

وبأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وإيمانه ، يستطيع
الآدمي أن يحيا حياته الكاملة .

ولعل أزمة الحضارة الحديثة علقتها كما قلت أيضاً أنها لم
تحقق للإنسان حياته الكاملة فهو على الرغم من تألق العقل
البشرى على نحو لم يسبق له نظير ، يشعر بنقص ، وهذا
النقص يبعث فيه القلق ، أو على الأقل بعض هذا القلق
الذي أصبح من سمات هذا العصر الذي نعيش فيه .

1. The first of the three main parts of the book is devoted to a general survey of the history of the subject.

2. The second part is devoted to a detailed examination of the various theories which have been advanced.

3. The third part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

4. The fourth part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

5. The fifth part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

6. The sixth part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

7. The seventh part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

8. The eighth part is devoted to a critical examination of the various theories which have been advanced.

والآن فلألخص لك التعادلية في هذه المبادئ الخمسة :
أولا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد . أن الوجود هو
التعادل مع الغير . الأرض لا تكون بغير تعادلها مع الشمس .
لا يوجد مخلوق وحده . كل كائن وكل صفة وكل حالة وكل
وضع لا يوجد في عالم المحسوسات ولا في عالم المعانى إلا بالنسبة
إلى غيره . لا بد من غيرك لتكون أنت . التعادلية إذن تقوم
على الغيرية . والوجود التعادلى يتلخص في هذه العبارة :
« بغير الغير لا يوجد وجود » .

ثانيا — أنت تعادلى إذا كنت تعتقد أن الفكر يجب
أن يكون معادلا للعمل ، وأن مسئولية « الفكر » هي في
حرية واستقلاله تجاه « العمل » ،

وهذا مخالف لرأى المذاهب التى ترى اندماج الفكر في
العمل أو خضوعه له . فالتعادلية متفقة مع الوجودية ومع الواقعية

الاشتراكية وغيرهما من المذاهب التي تركز على مسئولية
الفكر في التوجيه والتطوير . ولكنها تختلف عنها في أنها
تدعو إلى استقلال الفكر عن العمل ، ولا تبسح لرجل
الفكر أن يندمج في العمل ، كما هو الحال في وجودية سارتر ،
الذي عمل بنفسه مع زملاء له على تكوين حزب سياسي ، كما
عمل على موازنة أحزاب اليمين تارة وأحزاب اليسار تارة
أخرى . كذلك لا تبسح التعادلية لرجل الفكر أن يخضع
الفكر للعمل ، كما هو الحال في البلاد ذات النظم التي لا تسمح
للفكر أن يتخذ رأيا أو موقفا لا يسير الاتجاه المرسوم .
أنت إذن تعادلي إذا كانت مسئوليتك هي أن تجعل من
الفكر «قوة» حرة بأداتها المستقلة وأسلوبها الخاص لتعادل
وتوازن قوة العمل ، بأداته وأسلوبه .

ثالثا - أنت تعادلي إذا اعتقدت أن الخير والشر
وضعان للإنسان . وان الخير يجب أن يعادل ويوازن الشر
وأن جزاء الشر ليس الاقتصاص من حرية الشخص . لأنه

لاموازنة بين الشر والحرية . إذ لا علاقة البتة بينهما . إنما العلاقة هي بين الشر والخير . فالجزاء إذن هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر . كما أن الضعف والنقص حالات لها كذلك ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، على الإنسان أن يستخرجها من مكانها في نفسها .

رابعاً - أنت تعادلي إذا كنت تعتقد أن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه . أي أن الشك يمكن أن يعيش مستقلاً موازناً للإيمان .
خامساً - أنت تعادلي إذا كنت ترى أن الأثر الأدبي أو الفني يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير .

٢١

قد تسألني : ما هو مستقبل الفكر المعادل للعمل ؟
فأقول لك متفائلاً . إنني أرى المستقبل كله له . لأن هذا هو الوضع الطبيعي . وإذا كنا إلى هذا العصر الحاضر

نجد الفكر تابعا للعمل أى السلطان، فإن ذلك لن يكون فى الغد . فإنى أتنبأ للفكر فى العصور القادمة بقوة عظيمة تنبع من ذاته ، كما تنبع الطاقة من ضوء الشمس ، فنحرك بقوتها المركزة الذاتية مصائر البشر نحو الأهداف العليا التى يرسمها الفكر ، بعيدا عن أغراض السلطان . . . ويكون له من النفوذ والايحاء ما يرد سلطة العمل إلى الصواب إذا انحرفت وجارت . . . دون أن يفقد صفته الخاصة فينقلب عملا ، أو يتخذ أسلوب رجال السياسة فيصبح جدلا .

* * *

قد تسألنى كذلك : ما هو مستقبل التعادلية فى علاج الإنسان فأقول لك متفائلا أيضا :

إن التعادلية باعتبارها مذهبا يقاوم الضعف والعجز والنقص والقبح ، بأيمانها بوجود القوى المعوضة الموازنة أى المعادلة ، وبأعلانها طريقة واضحة للمقاومة ، هى نهوض الإنسان ، سواء كان فردا أو شعبا ، للكشف عن القوى

المعوضة المعادلة وإظهارها وتنميتها ... هذا المذهب يلغى
أثر الضعف والعجز، عن طريق استخراج المعوض والمعادل.
كل شعب أو مجتمع أو رجل أو امرأة أو فنان أو عامل أو
أديب الخ ... يجب أن يسأل نفسه هذا السؤال، إذا أحس
من نفسه عجزا طبيعيا أو نقصا خطيرا : ما دمت عاجزا ضعيفا
في هذه الناحية ، فلا بد أنى قوى قادر في ناحية أخرى ...
ما هي ؟ ...

لا يوجد إنسان ضعيف . ولكن يوجد إنسان يجهل في
نفسه موطن القوة المعوضة .

قم وقاوم .. وابحث عنها وكافح لإظهارها وتنميتها ،
لنعادل بها عجزك وضعفك ... يوم تنهض الإنسانية كلها
تفعل ذلك ... كم من مناجم القدرة ستنفجر لتعوض عن
مآسي العجز البشري .

أما بعد . . . فأظن اني قد أوجزت لك موقفي في خطوطه
الرئيسية . فاذا اردت تفصيلا فعليك ان تستخلصه بنفسك .
وهذا ميسور لك اذا اعدت قراءة كتيبي على هذا الضوء .
ولا أقصد بالطبع كل ما كتبت . فما من كاتب يستطيع ان يتقيد
في كل اعماله بعين الفكرة . والا كان مجنونا . فالجنون
احيانا هو الجمود على فكرة معينة . ولكنني اقصد الكتب التي
تحمل رسالة الكاتب . وهي التي يجب ان تقرأ قراءة
مستكشفة . وهذا أمر لا يستطيعه كل القراء . ومن هنا كانت
القراءة في بعض الأحيان فنا . بل اداء ايجابيا معادلا
للكتابة . لأن القارئ المكتشف يخاق شيئا . . . شيئا
موجودا من قبل ، ولكنه مجهول . وما قيمة الموجود ان لم يكن .
معلوما ؟؟ شأن القارئ المكتشف للمعاني والاتجاهات
شأن الرحالة المكتشف للجزر والقارات . انها مخلوقة قبل

او كسبوا
 فلاحظه: كل القراء الذين ابدوا اقل عظامهم على افكار
 الكاتب لم يتقرضوا لهذه الصفه ؟؟
 (التي هي عظم)

- ۱۳۲ -

فلنحفظه! كل القراء الذين ابداوا هذا نظامهم على افكار
الكتاب لم يتقرضوا لهذه الصفة ؟؟!

— ۱۳۴ —

((التي في عظم))

رحلته ولكنه هو الذى اخرجها من ضباب يشبه العدم الى نور اوجدها فى نظر الناس . لذلك كانت نعمة الكتب قراءها . وآفة الكتب قراءها أيضا . فمن القراء من يشبه البحار الجاهل الذى يسير بغير بوصلة ولا يعرف شماله من جنوبه ، ولا يحسن الا ان ينشر شراعه وينطلق فى بحره على غير هدى ، فأذا ضل لم يتهم جهله ، انما اتهم البحر وخلوه من الجزر والشواطىء وقد لا يضل ، ولكنه يجول جولة خاطفة ثم يعود سريعا ليقول انه تنزه نزهة لا بأس بها ، ولكنه لم يصادف ما يسترعى الالتفات . على ان هناك نوعا من القراء اعجب من ذلك . هو من يقرأ الكتاب ، لا يستخرج منه رأى المؤلف ، بل ليطبق عليه رأيه هو وما يعتنقه هو من نظريات فى الفكر والأدب والفن فهو يطالع كتابك ليعرف هل انت من رأيه ؟ فهو لا يريد ان يعرف عنك شيئا ولكنه يطالبك انت بشيء : هو ان تكون قد كتبت كتابك طبقا لما يريد هو من موضوعات لم يخطر ببالك ان

تتناولها . هذا القارىء هو عكس المكتشف . فهو كالبحار
الذى يخرج إلى البحر لا ليكتشف ما فيه من جزر ، بل ليقول
بعد جولته السريعة : كان يجب على البحر أن يبرز لنا على مقربة
منا جزيرة صالحة للزراعة ، فيها مناجم حديد وآبار بترول ،
كل هذه الأنواع من الملاحين لا يمكن أن يكتشفوا
شيئاً . لأنهم لا يعرفون ولا يريدون ولا يحاولون ولذلك
يخرجون كلهم إلى البحار ويعودون منها ، ولا يقولون لك
شيئاً نافعاً مثمرآ عما شاهدوا .

هذا عدا صنفاً آخر من القراء يزيفون أفكارك عندما
يستعصى عليهم فهمها على حقيقتها ، أو يعشون بها فتبدو شيئاً غامضاً
مضحكاً ، هو ولا شك من صنعهم هم ، لا من صنعك أنت .

وخير من هؤلاء جميعاً القارىء المتواضع الذى يحاول
بكل أمانة وطيب إرادة وحسن طوية أن يتابع أفكارك
بصبر وعناية . وهذا يكفي . سواء نجح أو أخفق في فهم
ماتريد ومثل هذا القارىء عادة لا يتحذلق ولا يتظاهر بعلم

ولا يلقى الكلام على عواهنه . إنما نعرفه جميعاً من اختيار
الفاظه واتزان أحكامه .

بجملة القول إذن أن القارىء المكتشف ليس بالقارىء
العادى . بل هو قارىء نادر لأنه وهب من صفات الصبر
والدقة وطول البال والباع وحسن التلقى وقلة الادعاء
وحب المؤلف — وأقول حب المؤلف لأنك لن تستطيع
أن تتحشم جهداً فى اكتشاف شئ ، لا تحبه — هذا القارىء
وهب من هذه الصفات كلها قدراً يؤهله لأن يكتشفك ...
أى يعطيك أكثر مما يأخذ منك .

فمن يكتشف جزيرة ولو صغيرة يعطيها من القيمة فى
نظر الزمن والوجود والتاريخ أكثر مما يأخذ منها .
هذا القارىء هو خالق المؤلف .

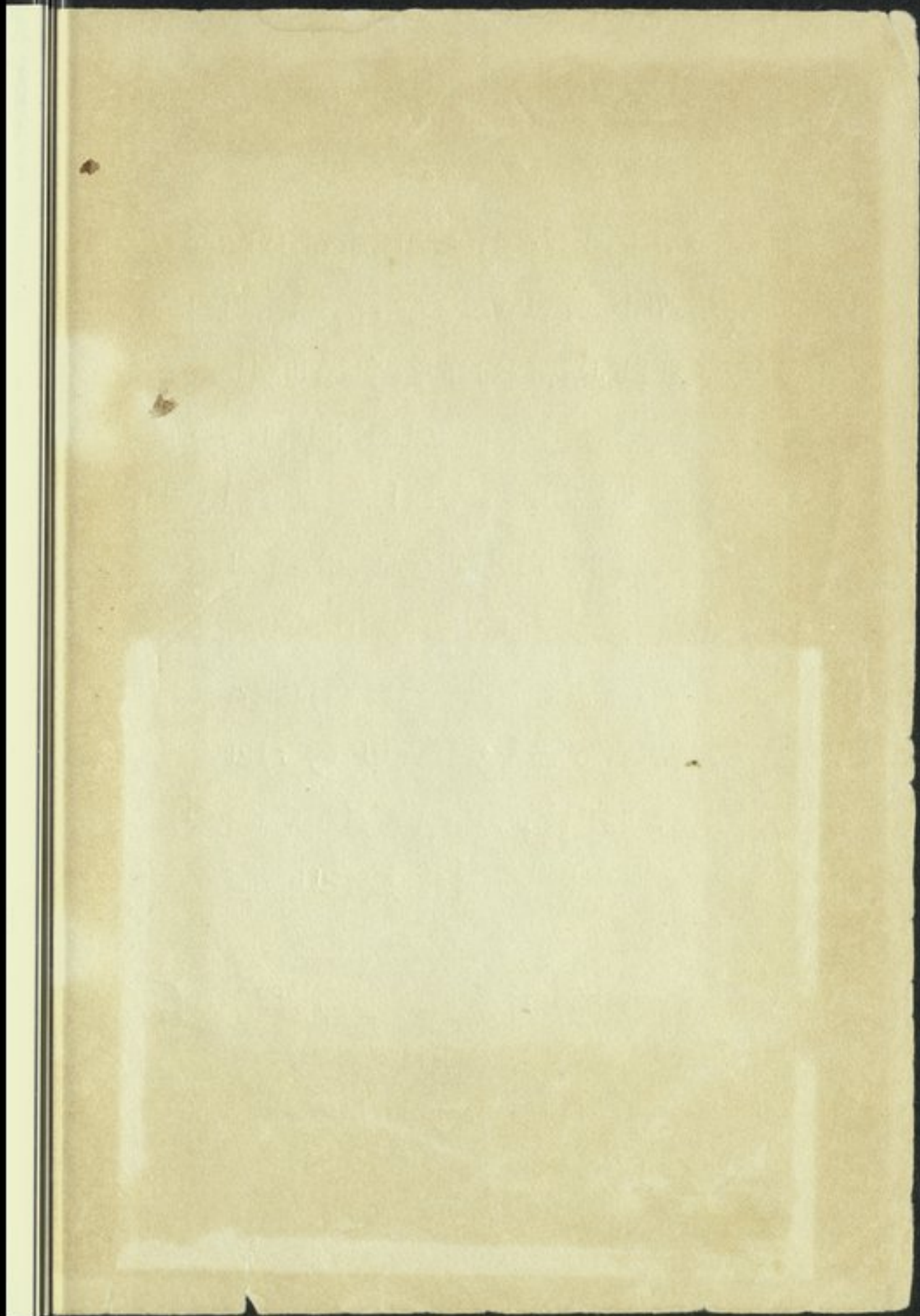
نعم . . . إنه هو الذى خلق أرسطو وأبا العلاء والخيام
وشكسبير .

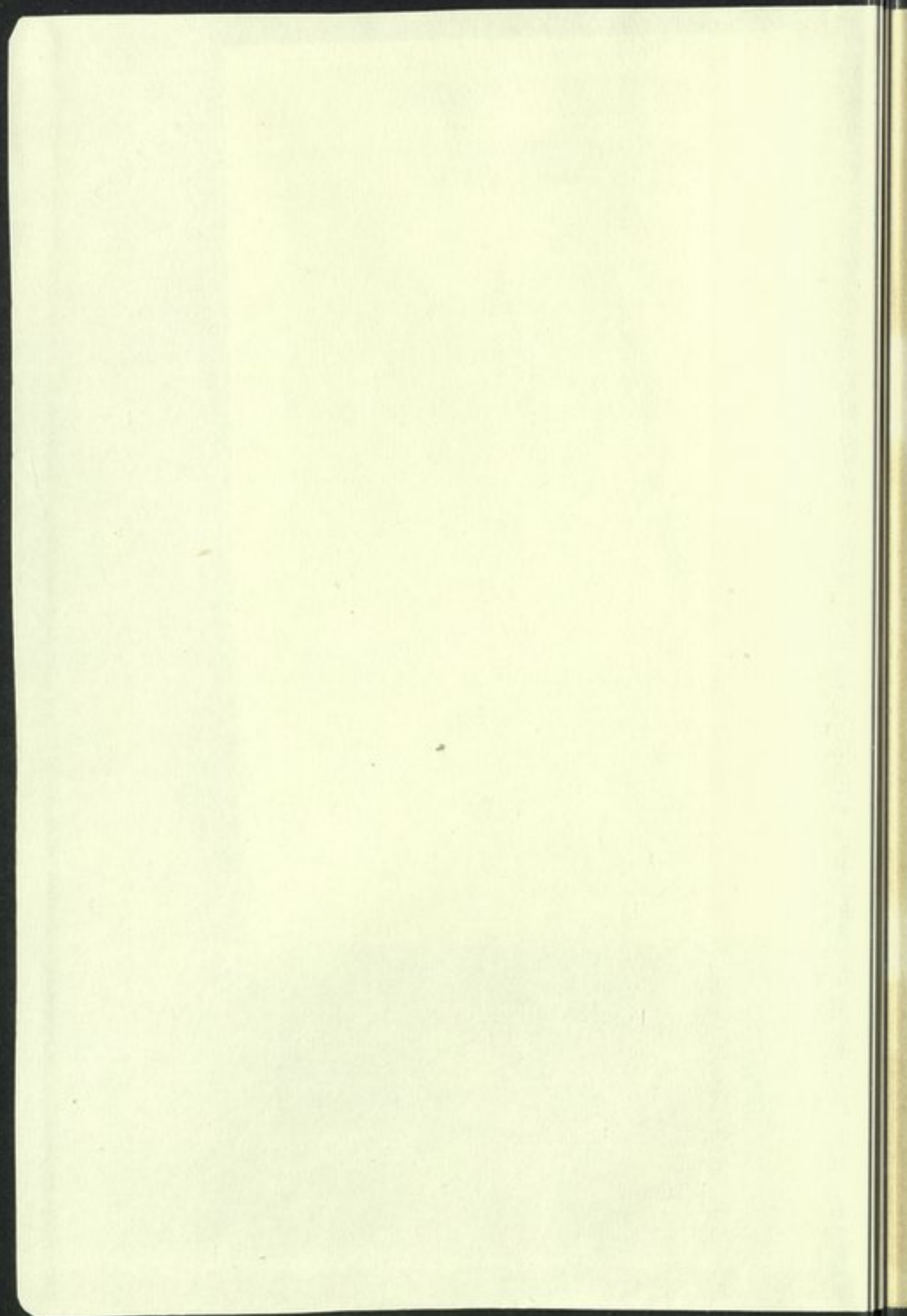
هذا القارىء الخلاق الذى عندما يخطر له أن يكتب

ويدون اكتشافه فإنهم يسمونه « الناقد » ، أو على الأصح
الناقد المفسر .. هو : « خرسوف كولمب » ، الفن أو الأدب .
لولا ما استطاعت الأجيال أن تعرف من مخلوقات الفكر
البشرى هذه المعالم والمسالك ...

القارىء المفسر هو أيضا من هذا الطراز ...
ولقد كنت أنت يا قارئ المجهول دافعا إلى البحث عن
حقيقتى ، بما أتحته لى من هذه الأجابة التى أرجو أن يكون
فيها بعض الجدوى .

إنك لم تذكر اسمك ... ما من أحد يعرفك ...
ولكن قد يكون لك فضل فى تعريفى أنا إلى الناس ...
وتحياتى إليك وشكرا ...





DATE DUE

A.U.B Library

A.U.B Library

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00491669

